غراميات نابليون بونابرت

جان ساڤان

ترجمة

لطفي سلطان

الكتاب: غراميات نابليون بونابرت

الكاتب: جان ساڤان

ترجمة : لطفي سلطان

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

ساڤان ، جان

غراميات نابليون بونابرت / جان ساڤان

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١٤ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٦٢٠ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٥٤٢٩ / ٢٠١٨

غراميات نابليون بونابرت





مقدمة

كان نابليون بونابرت وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة يحب كثيراً أن يتحدث مع رفاقه في المنفى عن النساء اللاتي عرفهن في حياته. وذات يوم، نظر إلى جورجو قائلاً: "إننا سنتحدث حديثاً طويلاً عن غرامياتنا، وعن النساء". وفي يوم آخر، قال لمونتولون: "دعنا نتحدث عن حبنا الأول!".

ويبدو أن نابليون قد أسر إلى مونتولون بأنه كانت له في حياته سبع عشيقات. ويذكر البعض أنه أضاف يقول وكأنما يوجه اللوم إلى نفسه: "إنه عدد كبير حقاً!". ونحن نترك المسئولية في تحديد هذا الرقم تقع على عاتق مونتولون، الذي كان مشغولاً حينذاك بالكتابة من أجل قضية لويس نابليون.

ولكن المغامرات الغرامية التي خاض غمارها ابن كورسيكا الذائع الصيت، كانت أكثر من ذلك بكثير.. والمؤرخ لحياة نابليون، كان من الممكن أن يجد قصصاً غرامية لا نهاية لها لو أن نابليون قبل أن يكون له صلة بجميع النساء اللاتي كن يعرضن عليه أنفسهن.

وفي ذلك كان يقول: "آه لو عرفتم مقدار الدسائس التي اكتشفها، وعدد النساء اللاتي أراد وزرائي تقديمهن لي! .. لقد كانت لدى "تاليران" دستة من العشيقات كن دائماً تحت الطلب!".

وفي هذا المجال، يبرز اسم "رينو دي سان جان" وزير الدولة، الذي كان مشهوراً بأنه "زير نساء"، والذي غذى نابليون بمجموعة من العشيقات. وكان "سان جان" يدعي أنهن من الطبقة الراقية، والصحيح أنه كان يجمعهن من فتيات باريس العاملات!

وعلى أية حال، فالعدد لا يهم! فقد انتصر نابليون بونابرت في معارك كيوبيد أكثر مما انتصر في معاركة الحربية، وكانت هذه الانتصارات الغرامية من ناحية أخرى انتصارات سهلة، مما جعل الإمبراطور يسمع ذات مرة عبارة قاسية وجهتها إليه "هورتانس" ابنة زوجته "جوزيفين".. فقد كان نابليون يفتخر بأنه لم يقابل قط في حياته امرأة "صعبة" فأجابته "هورتانس" على الفور قائلة: "ذلك لأنك لم تتعامل، يا سيدي، إلا مع نساء متساهلات!"، وكان هذا صحيحاً إلى حد ما..!

* * *

والناس – لكثرة تخيلهم هذا القاهر العتيد في صورة من يجعل الجميع يرتجفون من حوله – ينسون أنه كان خجولاً. ويجب على المرء أن يضع في اعتباره أن نابليون كان يتعامل مع جنود من واجبهم الطاعة العمياء، أو مع موظفين مدنيين مرغمين – بحكم العادة – على الخضوع لمن يدفع لهم أجورهم. ولعل هذا يفسر لنا السهولة التي كان يسيطر بها نابليون على من حوله. ومع ذلك، فهناك شهود كثيرون يقررون أن جبروت نابليون كان يتلاشى في حضرة أناس مثل الإمبراطور فرانز، والإمبراطور ألكسندر، والوزير مترنيخ، وغيرهم، وأن الكثيرين ممن يحيطون به كانوا يعارضونه ويقفون في وجهه. ولذا فإن عنف بونابرت –

الذي كان في معظم الأحيان عنفاً مبالغاً فيه أو متعمداً – ربما لم يكن مصدره سوى الخجل، وبالتالي رغبته في التغلب على هذا الخجل. ونحن نعلم أيضاً أن نابليون كان يقاسي عقدة من قصر قامته، ولذلك كان دائم التهكم على طوال القامة..!

كان نابليون – بسبب الخجل – لا ينظر في عيني محدثه.. إنه كان ينظر إما إلى الأرض، أو إلى جواره. ومن هنا، لم يكن مسلحاً في الواقع للقيام بدور "غازي النساء"، أما عن الشئون الغرامية، كضرب المواعيد وترتيب المقابلات، فحتى خدمه يعترفون بأن أبسط الرجال وأقلهم مهارة كانوا يتفوقون عليه في هذه الناحية!

وكان خجل نابليون يبعث في نفسه شعوراً بالخوف، فإذا جلس مع فتاة حسناء، حدثته نفسه بأنه لن يستطيع أن يمتلكها.. ومن الغريب أن هذا الرجل العبقري النادر الذكاء، ظل على اقتناع لا يتغير "بأن أجمل النساء هن اللاتي يظفر المرء بهن بصعوبة".. وقد لازمه اقتناعه الساذج هذا حتى نهاية حياته!..

لقد كان نابليون في حاجة إلى أن يعرف منذ البداية أنه سيكون مقبولاً من جانب المرأة، وأنها ستكون لطيفة في معاملتها له، وأن جميع السبل ستكون مهيأة أمامه. ونحن نراه أثناء سنوات مراهقته يحوم حول المومسات باحثاً بينهن عن وجه "لطيف".. وقد قال وهو في جزيرة سانت هيلانة: "لابد أن تكون لطيفة كي تستحوذ على إعجابي".

وكان خجله هذا يفقده ثقته بالنساء، ومن ناحية أخرى فهو مدين لهذا الخجل بسرعته وعنفه وقسوته، ونشأ ذلك عن "نقص دفين كامن

في جسمه"، وهو لم يحاول قط أن يخفي ذلك النقص، بل لم يفاجأ به من قاموا بتشريح جثته بعد وفاته.

* * *

وقد وصف "ستاندال" الكاتب الفرنسي الذائع الصيت – نابليون في أحد مؤلفاته، وصفاً قد يكون فيه كثير من المبالغة، ولكن فكرته الرئيسية تستحق الانتباه. يقول ستاندال: "كان الإمبراطور يجلس إلى منضدة صغيرة يوقع على بعض المراسيم، وقد تدلى سيفه إلى جانبه، ثم تدخل إحدى السيدات فيطلب منها أن ترقد في السرير دون أن تسبب له أي إزعاج. وسرعان ما يوصلها بعد ذلك بنفسه إلى الباب وهو يحمل الشمعدان، ثم يعود إلى قراءة مراسيمه والتوقيع عليها من جديد.

"وكان اللقاء في العادة لا يستغرق أكثر من ثلاث دقائق، ولم يكن الإمبراطور يتخلى أثناء ذلك عن سيفه، وهو أمر كان يجرح مشاعر النساء جرحاً عميقاً".

فهل كان نابليون يفعل ذلك كي يظهر لهن احتقاره كما يفترض ستاندال؟.. كلا.. إن هذا بالتأكيد ليس صحيحاً، إذ الواقع أن نابليون ولد محارباً لا عشيقاً. ومن هنا كانت "لهجته العنيفة في الحديث"، ووقاحة سلوكه التي يغفرها له كانت مثل فردريك ماسون، أكبر مدافع عن نابليون.. إنه لم يكن قد درس شئون الغرام والمغازلة، أضف إلى ذلك أنه قد وجد حصاداً سهلاً، فلم يكلف نفسه عناء الرقة وحسن المعاملة!..

وقد حدث ذات مرة اثنان إحدى المعارك الحربية، أن رآه الجراح الشهير "لارى" يعود إلى خيمته وسط دوى المدافع ويصيح قائلاً وقد اشتعلت عيناه: "امرأة! امرأة! إلى بامرأة في الحال!".

ولنتذكر أيضاً أن نابليون كان إيطاليا، وقد تحدث عن ذلك كثيراً، وكان يعرف اللغة الإيطالية منذ حداثة سنه. وقد اتضح أنه ينتسب إلى إيطاليا أكثر مما ينتسب إلى كورسيكا، وأفكاره عن النساء تماثل تلك التي كانت لصغار النبلاء الإيطاليين في القرن الثامن عشر.. وهي أيضاً نفس أفكار ملاك الأراضي الإيطاليين في القرن التاسع عشر، فالرجل هو السيد، والمرأة طوع أمره، ومن ثم ينبغي أن تكون المرأة دائماً تحت أمرة الرجل!

ذلك هو السبب في خشونته مع النساء، وفي ميله القوى "لفضح الأسرار" و"التفاخر بمغامرات الغرام" على حد قول البحاثة الثاقب الفكر أميل دار. لقد كان نابليون في عجلة ليروي قصة نجاحه إلى درجة تجعلنا نعتقد أنه لم يبحث عن النجاح إلا ليتحدث عنه العالم. وكان يجده لذة كبيرة في فضح العيوب الجسيمة لعشيقاته "ويا ويل المرأة التي تستسلم له أن لم تكن في جمال فينوس!".

وقد كانت فكرته عن الأخلاق فكرة تدفعه إلى أن يحكي أسرار مغامراته الغرامية حتى لزوجته جوزيفين، وكان يطلب رأيها ومعونتها إذا ما شعر بالحاجة إلى التغيير، وكانت زوجته تتعاون معه تعاوناً كان يؤدي دائماً إلى نتائج مثمرة بالنسبة لكليهما..!

ونحن نعرف رأى الكثيرات من النساء عنه، ولكننا نحب أن نعرف الشعور الذي كان يتركه في نفس النساء اللاتي لازمنه لبضعة أسابيع أو لعدة دقائق فحسب، مع استبعاد سلطانه كقائد عسكري أو كرئيس دولة. ومن المستحيل أن تكون أية واحدة من هؤلاء قد وجدته وسيماً من أول وهلة، ذلك لأن الإشعاع الذي كان يسبغه ذكاؤه الخارق على ملامحه لم يكن خليقاً بأن يحدث تأثيراً عميقاً في نفوس عشيقاته. ونحن لا نعرف كيف كانت ملامحه وتقاطيع وجهه ومظهره على وجه التحديد.. بل أن البون يبدو شاسعاً بين ما نعلمه عنه الآن وعما كان عليه في الحقيقة. فالبعض يطرون شكله ومظهره أيما إطراء، في حين يصفه البعض الآخر بأنه كان "كئيب الوجه، سوقي المظهر، ذا نظرة مرعبة".

وعلى أية حال، فلم يكن نابليون ذلك العاشق المثالي الذي تحلم به امرأة لا تقيم وزناً للفضيلة ولم تكن قامته القصيرة[1] نفسها تحوز إعجاب النسوة المتبرجات اللاتي يتأثر غرورهن بمثل هذه الاعتبارات، فضلاً عن أنه لم يكن محدثاً لبقاً ولا راقصاً ماهراً.. وقد قالت له الكونتيسة بوتوكا ذات مرة: "أنك ترقص جيداً يا مولاي.. لأنك نابليون الرجل العظيم"!

ومن هنا يمكن أن نتساءل: هل كان من الممكن أن تكون لنابليون حياة غرامية حافلة بالقصص والمغامرات، لو يجعل منه القدر قائداً ثم قنصلاً، ثم إمبراطوراً؟..

* * *

(1) كانت قامة نابليون أقل من ١٧٠ سنتيمتراً.

وقد كان نابليون يفضل الشقراوات على السمراوات وذوات القوام الممتلئ على النحيلات.. كان ينفر أيما نفور من المتحذلقات والمتكلفات في الحديث، فهو يريد من المرأة أن تكتفي بالعمل في حدود الاختصاص الذي يفرضه لها، كإعداد الزهور والورود أن كانت من المجتمع الراقي، أو خدمة بيتها أن كانت من عامة الشعب. وكثيراً ما كان يستعمل نفس الكلمات التي يستعملها الجند في وصف النساء، مثل: امرأة مائعة، أو عاهرة .. وكانت هذه الكلمات تتردد على شفتيه سواء أكان الأمر يتعلق بعشيقات قواده، أم بالأمهات اللاتي يحملن أولادهن ويطالبن بالخبز أمام الخبز. ولأنه لم يكن يعرف كيف يتحدث مع النساء، تراه يسلك معهن في صالوناته نفس السلوك الذي كان يسلكه من جنوده أثناء نوبة من الاستعراض أو التفتيش.. فهو لم يوجه قط لإحداهن كلمة مجاملة رقيقة، وإنما كان يسألهن دائماً أسئلة محرجة، أو يخاطبهن بعبارات جارحة. وبلغ من خشونته أنه كان يسأل كل واحدة عن عمرها، وكثيراً ما كان المرء يسمعه يصيح قائلاً: "آه! يا لتسريحة شعرك الكئيبة!".. أو: "من ذا الذي جعلك ترتدين ثوباً مثل الشوال؟".. أو: "أن ثوبك هذا قذر جداًا!.. ألا تغيرينه أبداً؟.. لقد رأيته عليك عشرين مرة من قبل!".

وذات مرة، خاطب سيدة خجول بقوله: "أليس لك أبناء؟ آه..! أنني أعرف تماماً أن الذنب ليس ذنبك.. ولكن فكري في طريقة تنجبين بها أطفالاً. إنني بهذا أسدي إليك نصيحة طيبة!".

* * *

ولا يمكن أن يفسر عدم تفهم نابليون للأخلاق إلا بنقص في التربية، فهو لم يعرف غير حياة الثكنات التي نشأته على عادات خاصة في اللغة والسلوك. وكثيراً ما شوهد وهو يضع يده على صدر جوزيفين، ويستعمل عبادات لا يستعملها المجتمع المهذب. وكانت أسئلته الخارجة تجعله يتلقى ردوداً قاسية في كثير من الأحيان.. ولم تكن لديه المهارة لتغطية هذه الردود، لأنه – وهو رجل التأمل – كانت تنقصه حضور البديهة.

وبعد هذه المبارزات الكلامية التي كان يخرج منها وقد انتقص من قدره، كانت أفكاره العدائية عن المرأة تصبح أقوى مما كانت. ومن هنا يمكن أن نفهم سر اضطهاده لمدام دي ستايل، وآراءه التي كان يصرح بها في بلاطه وأمام مجلس الدولة؛ فهو يعتبر مثلاً أن ما حصلت عليه المرأة من حقوق هو من قبيل الاغتصاب الذي لا يحتمل! وقد ذكر تاليران: "أن المرأة عدوة شخصية لنابليون" وسأل نابليون المشرعين قائلاً: "ألم تجعلوا المرأة تعد بطاعة الرجل؟.. أن عقد الزواج يجب أن يتضمن صيغة الوعد من المرأة بطاعة الرجل والإخلاص له. ويجب أن تعرف المرأة أنها لا تخرج من وصاية أسرتها ألا لتدخل تحت وصاية زوجها"، بل لقد طلب أن تضاف إلى العقد هذه العبارة: "أن الزوجة لا يحق لها أن تلتقي بشخص لا يعجب به زوجها". وكذلك قال لإحدى السيدات وهو في جزيرة سانت هيلانة: "إن المرأة ليست ألا ضلعاً.. إنها خادمة الزوج".

لقد وصل نابليون إلى رتبة القيادة بقسط ضئيل من التعليم.. أن عبقريته وغريزته وحدهما كانتا تقودانه في شئون الدولة والحرب. وهو لم ينظر إلى النساء إلا من أجل اللذة، وكذلك لم تنظر إليه النساء أكثر مما نظر إليهن.. بل لعلهن لم ينظرن إليه حتى من أجل اللذة!

وعلى الرغم من عبقرية نابليون التاريخية، فهو لم يقابل قط المرأة التي تناسبه، ومع ذلك فإن عدد مغامراته الغرامية، يفوق عدد مغامرات دون جوان، أو كازانوفا، أو لويس الرابع عشر!

غرام نابليون قبل زواجه بجوزيفين

أول غرام

ذات يوم، وصل إلى مدينة فالانس فتى في السادسة عشرة من عمره يرتدي الزي العسكري، وكان من المألوف في عام ١٧٨٥ أن يرتدي الفتية في هذه السن زي ضباط الملك .. وهو زي سلاح المدفعية.

وكان لهذا الشاب لكنة إيطالية ظاهرة، سيحاول أن يتخلص منها فيها بعد دون جدوى. ومن ناحية أخرى كان اسمه يثير الدهشة في نفوس السامعين، أن هذا الضابط الصغير في سلاح المدفعية الملكي كان قد عين في فرقة لافير التي تعسكر في مدينة فالانس، واسمه الحقيقي "نابليوني دي بونابارتي"[٢] فمن أين يأتي وزير الحربية بضباط المدفعية هؤلاء لجيش صاحب الجلالة؟.. يبدو أنه يختارهم من الخارج، وسوف يكون هذا الشاب مثلاً لأهالي جزيرة كورسيكا والتي عارض الوزير شوازوي – فيما مضى – ضمها لفرنسا.. كما كان الناس يتحدثون فيما بينهم في هذه المدينة الصغيرة من مدن إقليم دوفينيه..

وإذا كان الوزير شوازوي قد عارض ضم جزيرة كورسيكا إلى فرنسا، فذلك لأن هذه الجزيرة الجميلة لم تكن مبعث آمال كبيرة لفرنسا

([٢]) الاسم باللغة الإيطالية.

حينذاك. وكان نابليون نفسه يرى أن هذه الجزيرة "مازالت وستظل لزمن طويل تكلف فرنسا الكثير من الأموال". ولم يكن يستطيع – أثناء وجوده في كورسيكا – أن يبني لنفسه أي مستقبل. ولكن ها هو ذا يرى نفسه – وهو لا يزال في سن المراهقة – عضواً في فئة عسكرية تتمتع بامتيازات كبيرة. ومع ذلك، فهو لم يقدر هذا الحظ السعيد حق قدره .. فقلبه مفعم بألم دفين بسبب حنينه إلى وطنه الصغير، وبسبب فكرته عن العذاب الذي يلاقيه مواطنوه تحت نير الاحتلال.. إنه يخدم في فرنسا، ولكنه يطمع في أن يعسكر في كورسيكا إلى جوار أهله. وسببت له حالته النفسية هذه تعاسة كبيرة.

وهو إلى ذلك لم يكن أثناء وجوده في مدينة فالانس مشغولاً بما فيه الكفاية؛ فالوقت الذي يستغرقه عمله لا يسد كل فراغ أيامه الطويلة، فما بالك بالليالي؟ وهو يكتشف أيضاً بعد الانتهاء من اليوم الدراسي أنه يجهل الكثير من الأشياء، على الرغم من نهمه الطبيعي للمعرفة. ولذا نراه يطلب من بائع الكتب مؤلفات مارك أوريل لقراءتها، ويطلب أيضاً من مجتمع فالانس أن يمنحه ذلك التوجيه الذي حرم منه في كلية باريس وفي كلية بريين العسكرية. وعلى أية حال فقد لزمه – كي يندمج في مجتمع فالانس – أن يستفيد من وساطات ذوي النفوذ، وساعده على ذلك زملاء من أمثال سوربييه، الذي كان يعيش حينذاك عيشة الأمراء.

ونظر الناس حينئذ إلى نابليون وكأنه رجل غامض يثير الفضول، فقد كان قصير القامة، حليق اللحية، شاحب الوجه، نحيل الجسم، تبدو على وجهه أمارات الصرامة والإصرار، وكانت له شفتان قاسيتان

مضمومتان لفرط الانتباه، وعينان ثاقبتان فاحصتان، وصوت عميق ذو رنة غريبة. أما كلامه فكان نادراً، فإذا ما تحدث جاء حديثه جافاً مختصراً، وكان وعر الطبع صعب المعاشرة.

وأخذ الضابط الشاب يتردد على صالونات مدينة فالانس، واستقبلته الكونتيسة دي تورنان ونخبة من السيدات الأخريات، وكان يجد متعة كبيرة في لعب القمار والمخاطرة بمبالغ ضخمة كانت تصل إلى خمسة ملايين من الفرنكات[٣]، كما كان يحب الطعام الشهي ويشتري الكتب، ويشترك في الولائم الصاخبة وحفلات الرقص.

وفي إحدى هذه الحفلات، قابل "إيما" أول فتاة خفق لها قلبه بالحب، ولكنه كان حباً مقيداً تعساً يكتنفه كثير من الغموض، إذ أن نابليون لم يتحدث عنه، وهو الذي كان يحب أن يتحدث كثيراً في مثل هذه الأمور.

شاهد الملازم الثاني، نابليون بونابرت "أيما" ذات ليلة في إحدى هذه الصالونات، فأحبها على الفور، بل يبدو أنه فكر في أن يتزوجها. واضطر الضابط إلى أن يكتب إليها ليعبر عن مشاعره، إذ لم يستطع أن يراها أو يتحدث معها على انفراد. وطلب منها أن تقابله "بعيداً عن الأصدقاء"، وأن تحكم حكماً عادلاً على عواطفه نحوها. واختتم خطابه قائلاً: "طاب مساؤك يا "إيما".. وأرجو أن تضعي في اعتبارك أنه لمما يحزنني كثيراً أن يحمل إلى ردك أخباراً سيئة".

---

(٣) أي ما يساوي خمسة آلاف جنيها.. والأرقام المالية التي سترد في هذا الكتاب محسوبة بسعر الفرنك الحالي.

ولم تقتنع "إيما"، ولكن نابليون دافع عن حبه لها، فترددت وأخذت تتحدث عن آلامها ومتابعها، وعن المشاكل الاجتماعية والعائلية التي تنتظرها من جراء ذلك.. وطمأنها بأن العواطف الجياشة الصادقة لا يمكن أن تكون مصدراً للألم في يوم من الأيام. وكان مما كتبه إليها: "أجيبي عليّ يا "أيما" بأن قلبك يتجاوب مع قلبي، وبأنك تهتمين بأمري وتكافحين من أجلي.. فليحكم قلبك وسأخضع أنا لحكمه"

ولكن الحاجة بدأ يثير الفتاة الشابة، فبعد أن كانت تظهر عدم اكتراثها به، غدت تغضب وتثور في وجهه، وكانت هذه "كارثة كبرى" بالنسبة له، فهو لم يكن يطمع في شيء إلا أن يعجبها.. بل لعله كان يفضل عدم اكتراثها على غضبها. ولكنه راح يؤكد لها إخلاصه وحبه الطاهر الذي ينبع من أعماق قلبه.. إن قلبه لا يمكن أن يخطئ، ومهما يكن من أمر فسوف يكون دائماً سعيداً بخدمتها!

وصمتت إيما، وبدأ صمتها يثير في نفسه اليأس؛ فأعاد الكرة مستفسراً منها عن مشاعره نحوه، وسألها عما إذا كان قد أخطأ لأنه أحبها؟.. إنه لا يمكن أن يتصور أنها لا تهتم بسعادته وبشقائه: "هل أنت قاسية يا إيما إلى هذه الدرجة؟.. هل وهبت قلبك لغيري؟.. إنني لا أطلب منك سوى أن تحبي قليلاً ذلك الذي يحبك حباً يفوق كل وصف، فدعيني أقرأ ما يدور في نفسك".

وفي هذه المرة، كتبت إليه ترجوه أن يكف عن الكتابة إليها، بل يبدو أنها هددته بإفشاء سره، لأن خطاباته قد عكرت عليها صفو حياتها. وحينئذ أمسك الضابط الصغير بقلمه للمرة الأخيرة، وطلب منها ألا تنفذ

وعيدها، فهي "طيبة بدرجة لا يمكن معها أن تقدم على إذلاله.." وطلب منها أيضاً أن ترد إليه خطاباته التي تثير في نفسها كل هذا الاشمئزاز. وهكذا انتهت قصة أول حب لنابليون حتى قبل أن تبدأ.

ويمكننا أن نتصور اليأس الذي أصابه، فجعله يفكر في الانتحار.. لقد عاد إلى مسكنه في مساء اليوم التاسع من مايو عام ١٧٨٦ لكي يفكر في حياته، ويستسلم – على حد قوله – لأحزانه العميقة، وليرى "إلى أي اتجاه تتجه أحلامه؟.. هل تتجه نحو الموت؟".. كلا، إنه لا يزال في "فجر شبابه" ويأمل أن يعيش طويلاً، فما الذي يدعوه إلى تحطيم نفسه؟.. إنه يكره "الجبناء والسفلة والمنافقين" من الناس، ويفكر في مواطنيه الأعزاء الذين يقضون لياليهم بين "أذرع زوجاتهم المخلصات". ومع ذلك فهو يحس بالضيق والألم.. فالحياة ثقيلة الوطأة على نفسه.. إنه لا يتذوق شيئاً مما تنطوي عليه من سعادة وهناء، ويلمس الشقاء في كل شيئ.. إنه في سن الحب، ولكنه لا يقابل سوى الكوارث والأزمات"

أيام المرح والشباب

لم يدم يأس نابليون طويلاً؛ فهناك صالونات أخرى في مدينة فالانس، وآنسات كثيرات يترددن على هذه الصالونات.. حقاً أن أصغرهن سناً وأكثرهن شهرة يفضلن عليه الزملاء المعروفين مثل سوربييه الذي يمتلك عربة وجياداً، ولكن الأخريات لا يمكن أن يرفضن إطراء ضابط شاب من ضباط المدفعية!

وسرعان ما سرت الشائعات بأن نابليون يحلم بالزواج من الآنسة "لوبرى دي سان جرمان" وفي الوقت نفسه أخذت آنسة أخرى – هي "كارولين جريجوار" – تزعم أن الملازم الثاني يطمع في أن يبني معها عشاً سعيداً!

ولكن هذه الادعاءات جاءت في وقت متأخر، ولأسباب سياسية، فقد أصبحت الآنسة لوبري دي سان جرمان – فيما بعد – مدام باشاسون دي مونتاليفيه: زوجة لوزير، وكونتيسة من عهد الإمبراطورية. وكان من الطبيعي أن تدعي أنها قد أشعلت الحب في قلب أشهر أبناء مدينة "أجاكسيو".. ولكن مثل هذه الأقوال، لم يكن لها من دوافع في الحقيقة سوى إقناع الناس بأنها تتمتع بسلطان كبير لدى الإمبراطور، ولكي تؤثر أيضاً على قلب زوجها الوزير، الذي كان من أبناء مدينة فالانس..!

وهذا نفس ما أذاعته عن نفسها الآنسة كارولين جريجوار، وكل ما هنالك أنها كانت أكثر تحفظاً من زميلتها، وهي تشبه بطلات جان جاك روسو، الذي كان نابليون متشبعاً وقتئذ بآرائه وأفكاره!

وكارولين هذه تمثل أيام المرح والشباب بالنسبة للضابط الصغير، فهي التي عوضته عن قسوة الأخريات، وكان والدها – السيد جريجوار دي كولومبييه – يمتلك أرضاً لا بأس بها، ولكنه لم يجد زوجاً لابنته كارولين.. ومن ثم لم يكن هناك من أمل له بعد وفاة زوجته إلا أن يزوج ابنته – التي سترثه يوماً – من ضابط فقير قد يغريه المال!

وبالطبع لم ترفض كارولين مغازلة الضابط الكورسيكي الشاب. وفي فصل الربيع والصيف، جمعت المواعدين كل منهما.. وكتب البطل عن هذه المقابلات أثناء أسره الأخير يقول: "لم يكن هناك من هو أكثر طهراً منا، أننا كنا نرتب مواعيد اللقاء، ولا زلت أذكر موعداً من هذه المواعيد.. وكانت كل سعادتنا تتلخص في أننا كنا نأكل الكريز معاً". ومع ذلك، كان نابليون من الحرص بحيث لم يغامر بطلب يد كارولين، ذلك أنها كانت تقرب من سن والدته!

ومن الغريب، أن بونابرت قد رد إلى هذه الفتاة – وهو في قمة المجد – ما كانت قد منحته إياه من مال، وشاءت المقادير أن يرد إليها ذلك المال بفرنك نابليون الذهبي!.. فهي لم تنس أن تذكره بنفسها حينما أصبح في مركز يسمح له بتوزيع العطايا، وكانت قد تزوجت من ضابط سابق يدعى كارامبيل بريسبو. وكتب قنصل فرنسا الأول إلى مدام كارولين بريسبو يخبرها بأنها سوف يراها مرة أخرى، وبأنه سيلحق زوجها

بإحدى الوظائف.. وهكذا لم يكن لـ "كارولين" أن تندم على بعض المواعيد البريئة التي مكنتها من أن تحصل لنفسها من الإمبراطور على لقب بارونة، ولزوجها على وظيفة مريحة في إدارة الغابات.. إنه الحصاد بعد أيام أكل الكريز!

الأديبة السويسرية

في عام ١٧٨٦، رحل نابليون إلى مدينة ليون مع آخر مجموعة من فرقته حيث دخلت امرأة أخرى في حياته هناك..

ففي مدينة ليون، قابل امرأة تكبره سناً بكثير، ولكنها على حد قوله لا تزال قادرة على إثارة المشاعر المتأججة في النفوس.. أما هذه المرأة فهي الأديبة "ماري آجيبه"، السويسرية المولد. وكان نابليون يطمع حينئذاك في أن يكون لنفسه مركزاً ممتازاً في عالم الأدب، ومن ثم فقد فتنته هذه المرأة الكريمة..

وبدأت قصة هذا الحب حين أصيب نابليون بالحمى، فاعتنت به ماري آجبيه، وكان يسكن عندها، وأظهر لها نابليون عرفانه بالجميل، وتعلقت ماري من ناحيتها بمريضها الشاب الذي استعاد صحته سريعاً ولكن روايتها التي لاقت نجاحاً هي تلك التي كتبتها في أغسطس عام ١٧٨٦ وهي مع عشيقها الكورسيكي الشاب "نابليون" في مدينة ليون!

وقد رأى كل منهما الآخر مرات عديدة، وكانا يتبادلان الرسائل بانتظام، وكان نابليون يطلب منها ألا تهمل الاحتفال بعيد ميلاد حبهما، وأن تفكر فيه من بعيد.

وظلت ماري من ناحيتها مستمرة في عطفها عليه. ونحن نجد عدة هبات مالية مقيدة باسمها على دفعات في الحسابات الخاصة

بإمبراطور فرنسا، وهي هبات لا تقل بأي حال عن مليون ونصف مليون من الفرنكات[٤] هذا فضلاً عن معاش سنوي قدره مليون وثمانمائة فرنك!

(٤) أي ما يساوي ١٥٠٠ جنيه.

الوارثة الطموح

في بداية شهر سبتمبر ١٧٨٦م غادر الملازم الثاني نابليون بونابرت فرنسا متجهاً إلى أجاكسيو في جزيرة كورسيكا لقضاء أجازة مدتها ستة أشهر، ويمكننا أن نتصور مدى سعادته برؤية وطنه العزيز من جديد، ولكننا نجهل ما إذا كان قد بدأ يثير الإعجاب حينئذ في قلوب فتيات "أجاكسيو" الجميلات. ويبدو أن سبباً جدياً قد احتجزه في مسقط رأسه، إنه يطلب – في نهاية عطلته هذه – أن تمد أجازته ستة أشهر أخرى!

وأخيراً – بعد عام من الراحة – ركب السفينة عائداً إلى فرنسا. ومع ذلك، لم يعد إلى فرقته على الفور، وإنما توجه إلى باريس، حيث تقدم إلى قصر فرساي كصاحب حاجة. وأقام أثناء ذلك في أحد فنادق العاصمة، وهو فندق شاربورج بشارع سانت أونوريه، وكان يتردد كثيراً على المسارح التي يعشقها، وبروح يغدو تحت "بواكي" شارع الباليه رويال، حيث يتسكع كل يوم عدد كبير من بائعات الهوى. وبعد عودته إلى فندقه في الليل، كان يفتح كراسته ليدون فيها مذكراته، ويسجل بها مشاعره وأفكاره عن الحب. وفي يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ١٧٨٧ – وكان حينئذ في الثامنة عشرة من عمره – لم يتردد في أن يدون في كراسته وصفاً جريئاً لليلة قضاها في اليوم السابق، وكان بطلتها عاهرة صغيرة من مدينة نانت!

ومن باريس اتجه نابليون مرة أخرى إلى أجاكسيو حيث أقام هناك سنة أخرى، فهل كانت وراء ذلك مغامرة غرامية لا نعرفها في جزيرة كورسيكا؟.. الواقع أن أحداً لم يتحدث عن ذلك، ولكن قد يكون هذا صحيحاً..

وحينما عاد نابليون إلى فرنسا في يونيو عام ١٧٨٨، توجه على الفور إلى وحدته التي كانت معسكره في مدينة أوكسون بإقليم بورجوني، وبذلك بدأ الجزء الثاني والأخير من حياته العملية.. وكان الجزء الأول قد استغرق مدة ستة أشهر بوصفه ملازماً ثانياً، أما ذلك الجزء الأخير فقد دام مدة خمسة عشر شهراً بوصفه ملازماً أول. وأمضى بضعة أشهر في الخدمة في عام ١٧٩١.. وبذلك انتهت مدة تدريبه العسكري والفني، وعلى الرغم من قصر هذه المدة، إلا أن عبقريته الكبيرة في رسم الخطط العسكرية كانت واضحة.

وفي مدينة أوكسون، أقام نابليون عند صاحب حانة يدعى دومان، وكان يتناول طعامه مع زملائه، وهو طعام شهي كثيراً ما تذكره بشوق أيام المنفى. وكانت أعماله العسكرية محدودة حينذاك.. ومن ثم كان يقضي وقت فراغه الكبير في القراءة والتردد على صالونات مدينة أوكسون المتواضعة، وفي لعب القمار ومغازلة الفتيات.

ومن بين تلك الفتيات، كانت هناك تكبره بست سنوات تدعى ماريا مرسيريه. كانت لطيفة صغيرة الجسم، تزوجت آخر الأمر من رجل يدعى بابريه، وظلت تحتفظ حتى وفاتها في عام ١٨٤٢م بخاتم من الفضة ووشاح من الحرير، تذكاراً لحب الملازم نابليون بونابرت لها..

وكما فعل نابليون في مدينة فالانس، نراه يحاول هنا أن يربط حياته بحياة فتاة ثرية. وقد اكتشف هذا "الزواج المفيد" – على حد قوله– في شخص مانسكابيليه الشابة التي اشتهرت بأنها أغنى الوارثات في مدينة أوكسون، وكانت جميلة رقيقة طويلة القامة.

وغازلها نابليون ثم تقدم لطلب يدها، ولكن طلبه قوبل بالرفض، فالوارثة الطموح لم تجد في الملازم بونابرت ما يوحي بأنه قد يصل إلى درجة عالية في الجيش، ومن ثم لم يكن بالنسبة لها الزوج الجدير بها.. أما والدها السيد شابير، فلم يكن يريد لابنته زوجاً لا يملك إلا "الزي والسيف".

إذن فقد رفض بونابرت، ولم يبق من هذا الحب سوى "فيشة" عاجية من فيشات القمار، حفر عليها نابليون بعناية اسم مانسكا ذات مساء. ولم تظهر مانسكا قط في حياته حينما وصل إلى قمة المجد، والسبب هو أن نابليون لم يكن يحب أن يرى أمامه عينيه أي أمارة تذكره بفشله!

مدام بريور

كان نابليون يعترف بجميل النسوة اللاتي بادلنه العواطف الطيبة أيام شبابه، وقد حدث ذلك بالنسبة لكارولين جريجوار. ومما قاله أحد أمنائه: "أن نابليون كان لا ينسى قط من أبدوا عطفهم عليه قبل أن يصل إلى قمة المجد".

وفي أبريل من عام ١٧٨٩، كان نابليون موجوداً في مدينة سور، وهي مدينة صغيرة كان الاضطراب قد عمها بسبب نذر الثورة، فانتقل ضابطنا الشاب إلى هناك مع زملائه. ولما وصل إليها، كانت القلاقل قد انتهت في المدينة، ولكن الجو كان لا يزال ينذر بوقوع قلاقل أخرى.. فكان لابد أن يبقى هناك بعض الوقت..

وتوالدت الملذات هناك في وفرة، ما بين حفلات للرقص وحفلات للاستقبال، وأخرى للمرح والصخب. ولاحظ بونابرت أن نساء هذه المنطقة "يولين العسكريين أعظم تقدير". ولم يكن له منافس في الحب سوى ضابط واحد، ومن ثم كان الباب مفتوحاً أمامه على مصراعيه. وفي يوم عيد الفصح، وجه إليه صاحب المنزل الذي ينزل فيه دعوة لحضور حفل من هذه الحفلات، وكان الرجل محامياً ثرياً. ومن الطريف أن نابليون علق على هذه الدعوة قائلاً: "ومع ذلك فأنا أفضل أن آكل طعام بلادي في مدينة أجاكسيو". وعلى أية حال، فقد كان بالحفل

عدد كبير من الفتيات الجميلات ليعوضنه عن "طعام" بلاده. وقد كتب لأخيه جوزيف يقول في ذلك: "يا للفرصة المواتية!.. إن الحفلات تقام في كل مكان، ويعيرني الناس اهتماماً لا تتصوره!". ويضيف إلى ذلك: "إن النساء يبحثن عني ويفخرن بالجلوس إلى جواري". ولكنه بالطبع لم يذكر اسم واحدة منهن في كراسة يومياته أو خطاباته.

وقصة غرام نابولين في مدينة سور غير مشكوك في صحتها، وبطلتها سيدة شابة جميلة، كانت زوجة لموظف كبير في المدينة. ولما كانت هذه القصة معروفة بنتائجها لا بحوادثها، لذا نفضل روايتها على الوجه على الوجه الآتي:

في عام ١٨٠٥، بعد أن توج نابليون نفسه إمبراطوراً في باريس، انتقل إلى مدينة ميلانو كي يتوج نفسه ملكاً على إيطاليا، ووقع حادث في الطريق، فقد رفض نابليون أن يمر بمدينة ديجون على الرغم من إلحاح حاشيته. ودهش رجال البلاط من رفض الإمبراطور، ولكنهم سرعان ما أدركوا أنه لا شك يريد أن يتفادى رؤية الأماكن التي شهدت سوء حظه في الغرام. وعلى العكس من ذلك، رحب الإمبراطور أن يتوقف في سور المدينة، حيث كانت تعيش – في عزلة تامة – سيدة ألحت في أن يؤذن لها بالمثول بين يدي عاهل البلاد.

ودون كبير الأمناء اسم السيدة في قائمة طالبي شرف المثول بين يدي جلالة الإمبراطور، وتوقفت عينا نابليون طويلاً أمام اسم هذه السيدة، التي لم تكن غير "مدام بريور"!

وارتسمت على شفتي الإمبراطور ابتسامة خفيفة، وقال يخاطب كبير أمنائه:

– يبدو أنك تعرف أنه قد كانت لي بعض المغامرات حينما كنت أعسكر في هذا الإقليم، فاحفظ السر ودعها تدخل..!

وأغلق الباب من خلف السيدة التي كان الملازم بونابرت قد أحبها أثناء إقامته في مدينة سور. ولم يكن نابليون جحوداً، فقد تفضل على ابنها الصغير بمنحة تعليمية، كما منح شقيقها وظيفة كبيرة!

نقطة ضعف

بعد أن أقام نابليون شهرا في مدينة سور، عاد إلى مدينة أوكسون من جديد، واستأنف فيها لعب القمار وقراءة الكتب، ودامت إقامته في أوكسون مدة ثلاثة أشهر، ثم حصل على أجازة من الجيش، وسافر في شهر سبتمبر ليرى أسرته في أجاكسيو..

ونحن لا نعتقد أنه ذهب إلى هناك ليرى أسرته وعشيرته فحسب، ذلك أن الملازم بونابرت كان ينظر نظرة عالية جادة إلى واجباته العسكرية. ولو عرفنا أنه غادر مدينة أوكسون في شهر سبتمبر عام ١٧٨٦، ولم يعد إليها إلا في فبراير من عام ١٧٩١، لرجحنا أنه كانت هناك وراء هذه الأجازة الطويلة مغامرات نسائية أكثر منها سياسة.

كان نابليون حينئذ قد بلغ العشرين من عمره، وبذلك دخل في تلك الفترة من حياته التي سيحلو له أن يتذكرها كثيراً فيما بعد. وقد كان – وهو في جزيرة سانت هيلانة – يذكر هذه الفترة في كثير من الغرور، وكان سكرتيره كولانكور – وهو من أكبر المعجبين بنابليون والمطلعين على أسراره – يرى في هذا الفخر بالماضي "نقطة ضعف" في شخصية أعظم قائد عسكري عرفه هذا العصر. وقد ذكر كولانكور في مذكراته التي كتبها عن سيدة في سانت هيلانة إنه كان في سن العشرين "يلاقي نجاحاً كبيراً ولاسيما بين الجنس اللطيف".

وذكر كولانكور أيضاً أن نابليون كان يحب أن يتحدث معه عن سنوات شبابه أثناء عودته بالزحافة الجليدية من موسكو بعد كارثة عام ١٨١٢، وأنه كان يروي بعض تفاصيل مغامراته الغرامية، ويردد في سرور أن بعض سيدات المجتمع "قد فضلنه" حينذاك على غيره من الشبان!

وكثيرون ممن كتبوا عن نابليون، ينسبون إليه أنه كان على علاقة بعدة عشيقات أثناء وجوده في كورسيكا.. ولكننا نود أن نهمل ذلك لعدم وجود أدلة أكيدة، ولو أننا نحب أن نضيف أن هذه القصص ليست كلها من نسج الخيال فهناك بعض المعاصرين لنابليون – وهم أناس جديرون بالثقة – شهدوا بقيامه بمغامرات من هذا القبيل. ويقص علينا لاري – الضابط الجراح الذي كان يعمل في جيش بونابرت، والذي يعد من الثقاة لأنه كان يستقي معلوماته من والدة نابليون – يقص كيف أن قائده قد "أثار ذات يوم قلق والدته البالغ بسبب إحدى مغامراته الغرامية". أما بطلة هذه المغامرة، فهي سيدة كورسيكية هامت به حباً، وكانت تغار عليه غيرة شديدة، ومع ذلك، كان نابليون متعلقاً بفتاة أخرى!

وبدأت المأساة حينما علمت المرأة الأولى بخيانة حبيبها، فقررت أن تنتقم منه أبشع انتقام.. بل لقد نفذت بالفعل هذا القرار ودست له السم في كأس من النبيذ حينما جاءت ليتناول العشاء عندها، في اليوم التالي لاكتشاف خيانته. ولم تمض بعض لحظات، حتى كان الملازم بونابرت يتلوه من شدة الألم. وما كاد الخبر يصل إلى والدته حتى هرعت إليه على الفور وهي في أشد حالات الانزعاج وقامته له بإسعافات

سريعة في انتظار وصول الطبيب، الذي تمكن أخيراً من انتزاع الضابط الشاب من براثن الموت..

وقد انتزعت هذه المغامرة نابليون كذلك من ملذات الحياة.. ولكن ليس لفترة طويلة!

أفكار عن الحب

لما عاد نابليون من كورسيكا، توقف قليلاً في مدينة فالانس، ثم توجه إلى معسكره في مدينة سان فالييه من مدن إقليم دوفينييه.. وكان في صحبته شقيقه لويس الذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره، وقد أخذوه نابليون ليعيش معه في المعسكر فترة من الوقت..

وكان نابليون يتناول قلمه ليسيطر به صفحات جديدة في كراسة يومياته، وكان مما كتبه حينذاك: "أن نبات اللبلاب يعانق أول شجرة يقابلها في طريقه.. تلك باختصار هي قصة الحب!"، ترى ما هذه الذكرى التي كان يحملها في نفسه عن كورسيكا العزيزة؟.. أو ما الذي حدث له في مدينة فالانس؟.. وعلى أية حال، فقد تحدث مع نفسه كثيراً عن حاجته إلى الحب: "أن الرجل الذي يغادر كورسيكا ليعيش في بلاد أجنبية – بعيداً عن أهله – يكون في حاجة إلى علاقة غرامية ما في ذلك شك".. ويقول: "حقاً أن الصداقة تعوض الرجل بعض الشيئ.. ولكن الإنسان الذي يشعر بالغربة يسهل عليه أن يستمد الحب عن عيني امرأة يهفو قلبه إليها".. وهكذا نرى أن إحساسه بالغربة يلهب خياله، ويذكي في قلبه حرارة الحاجة إلى الحب.. إنه يسأل نفسه هذا السؤال: "ما الحب إذن؟".. ثم يجيب عن سؤاله بقوله: "أن الطبيعة كلها توحي بالحب.. فالحب سيد الإنسان سواء أكان ذلك وسط ثلوج أيسلندة أم في لهيب خط الاستواء".. بل أن الحب في نظره أكثر من ذلك، فالرجل

لا شيء وهو محروم من الحب، لأنه يعي حينئذ ضعف نفسه وعجزها، والحاجة إلى الخلود تجعل من الضروري أن يلعب الحب دوراً في حياة الإنسان..

ولكن الحب – كما يضيف بونابرت آسفاً – ليس السعادة كلها.. "فكثيراً ما يوجه كيوبيد سهاماً ماكرة تسمم أحلى انفعالات الغرام. ولكن كلا..! فالمرء يجد اللذة أحياناً في الألم حتى أنه يأبى أن يتخلص منه.. ذلك لأن من عادة الإنسان أن يتمسك بما يملكه ولو كان باعثاً على شقائه.. وهو بعد أن يتذوق نشوة الحب، يخشى على نفسه من وحدة القلب الرهيبة!".

* * *

وأقام بونابرت للمرة الثانية في مدينة أوكسون في المدن ما بين ١٢ فبراير، ١٤ يونيو عام ١٧٩١ وهناك وجد في انتظاره دي مازي أحسن أصدقائه، وكان يحب فتاة تدعى أريلندا. وعلى الرغم من أن نابليون كان يشعر – بدوره – بالحاجة إلى الحب، إلا أن فتيات أوكسون وسيداتها لم يفكرن في منحه رضاءهن أثناء هذه المدة القصيرة!

وغضب نابليون لهذه العزلة التي فرضت عليه، وأخذ يسخط على الحب ويثور قائلاً: "أعتقد أن الحب ضار بالمجتمع وبسعادة الإنسان الفردية.. نعم، إنه يسبب من الضرر أكثر مما يسبب من النفع.. وكم يكون جميلاً لو تخلصنا منه فيرتاح الناس".. ونحن نرجح أن تنكره هذا لأقواله السابقة لم يكن إلا لغيرته من صديقه دي مازي، ذلك العاشق السعيد.. ولكن نابليون لا يلبث أن يعود إلى كراسته ليدون فيها من

جديد. "إنه بدون المرأة، لا تكون هناك صحة ولا سعادة".. بل إنه يريد أن يعلم العزاب فيقول: "إن مسراتهم ليست هي المسرات الصحيحة".. ويسخر من أولئك الذين يعتقدون أن في وسعهم أن يعيشوا بدون امرأة، مؤثرين إشباع لذتهم بنساء الآخرين، قائلاً: "يجب علينا أن نضحك من الذين يدعون أن الكمال يكمن في العزوبية فوجود المرأة ضروري للتطور وتكوين الجنس البشري".

زوجة القائد العام

كان بونابرت قلما يعيش في معسكره، فقد كان يأخذ أجازات كثيرة.. وبعد أن حصل على رتبة ملازم أول خلال فترة إقامة قصيرة قضاها في مدينة بالاس، نراه يأخذ أجازة جديدة مدتها سنة، فيقضي شطراً منها في كورسيكا، والشطر الآخر في باريس..

وكانت الثورة حينذاك تكبر وتتسع.. وقد هجر كثير من النبلاء مراكزهم في الجيش، وترتب على ذلك وجود كثير من المناصب الخالية، مما أدى إلى أن يظفر بونابرت – بسرعة – برتبة "كابتن".. وها هو ذا يذهب من جديد إلى كورسيكا، فلا نراه في فرنسا بعد ذلك إلا بعد تسعة أشهر.

ومن الصعب على المرء أن يتابع حياة نابليون الغرامية خلال سنوات الثورة، فهو لم يشترك في الصراع الوطني ضد الغزاة حينما كان وطنه في خطر، ونلاحظ أنه كان حينذاك في أجازة منتظمة على الدوام، بل أن المعارك المجيدة التي كانت دائرة في فالمي وجيماب لم تحظ منه بأي جانب من الاهتمام، والمرء يراه تابعاً لكورسيكا العزيزة أثناء الأخطار الشديدة التي كانت فرنسا تتعرض لها في تلك الأيام. وأخيراً، غادر نابليون كورسيكا في يونيو من عام ١٧٩٣، حينما طرده مواطنون بعد أن هددوه بالموت. وفي هذه المرة، لجأ إلى فرنسا مصطحباً معه أسرته،

ومنحته فرنسا هو وعائلته مسكناً محترماً، وفتح له الجيش أبوابه من جديد، وهكذا نرى الحظ يدفعه دفعات قوية!

وبعد ذلك بقليل – وبدافع من نشاط بارا وقوته الدافقة – بدأت العملية الكبرى التي تهدف إلى إعادة غزو قاعدة طولون. ونلاحظ أن بارا – الذي كان يجعل من نفسه منذ ذلك الحين حامياً لبونابرت – سوف يمنحه فيما بعد رتبة جنرال ليقود سلاح المدفعية في حملة إيطاليا. ولكن كان على نابليون قبل ذلك أن يلفت إليه نظر بارا، ومن أجل ذلك كان لابد له من أن يتعرف على الجنرال كارتو، الذي كان يقود الجيش في حصار قاعدة طولون. ولم يكن الجنرال كارتو شيخا –كما يدعون –كان في الثانية والأربعين من عمره، حاملاً لوسام فرسان سان لويس، ولم يجانبه التوفيق قط في رسم الخطط العسكرية. ومن ناحية أخرى كان واقعاً تحت سيطرة امرأة قوية الشخصية هي زوجته، التي كانت قد تمكنت بجمالها من قلب هذا القائد العام، حتى أن كثيراً من الأوامر العسكرية التي كانت تخرج من القيادة العامة، كانت تأتي بوحي من تأثير هذه السيدة ونفوذها!

وسرعان ما اكتشف بونابرت الطريق الموصل إلى الجنرال كارتو – هذا الوسيط المهم – فقد أدرك على الفور أنه يجب أن يظفر برضا زوجته الجميلة، فيتسنى له أن يتميز على غيره ويرتفع إلى رتبة القيادة العامة، ومن ناحية أخرى، فإن إطراء سيدة حسناء كهذه لم يكن بالشيء الثقيل على قلب الضابط الشاب..!

كانت "كاترين أورسولا" زوجة القائد العام سيدة باريسية في الثانية والثلاثين من عمرها.. وسرعان ما أعجبت بالضابط العصبي الشاب. وقد لام الكثيرون نابليون لعلاقته المغرضة مع بعض زوجات رؤسائه على الرغم من تظاهره بالاتزان. ولكن من العدل أن نذكر أن زوجة كارتو قد شغفت به حباً؛ فقد زكته ضد مشيئة زوجها وبذلك جعلته يضع قدميه على أولى درجات المجد. وانتهى الأمر بالجنرال كارتو أن غادر قيادة الجيش المعسكر أمام قاعدة طولون ليتسلم قيادة حملة إيطاليا..!

وبعد ذلك بعامين، وقف الجنرال كارتو موقفاً مائعاً من القلاقل التي وقعت في يوم ١٣ فوندمبير[٥]. وفي أيام حكومة القنصلية، منحه بونابرت قيادة عظيمة في هولندا، ثم عينه مديراً لليانصيب الوطني، ومنحه معاشاً سنوياً قدره مليون وثمانمائة ألف فرنك، وهو ضعف المعاش الذي يتقاضاه عادة من يحملون رتبة "جنرال".

ولم يكن ذلك كل شيئ، فقد ذكَّرت كاترين، نابليون بنفسها عدة مرات حينما أصبح إمبراطوراً. وتذكر الإمبراطور السيدة الجميلة التي كان يغازلها عند قاعدة طولون حين كان ضابطاً صغيراً. ولم يحدث قط أن ردها خالية الوفاض في أية مرة ذهبت إليه.. وكان يمنحها في كل مرة مبالغ تتراوح بين مليون ومليونين من الفرنكات، ومنحها ذات مرة مبلغا يساوي الآن ما قيمته خمسة ملايين وأربعمائة ألف فرنكا..

لقد كانت هذه "المنح الصغيرة" بمثابة تذكار للماضي.. هذا عدا المعاش السنوي الدائم والمرتبات الضخمة.

---

(٥) شهر من شهور الثورة الفرنسية.

وحينما توفى الجنرال كارتو في ربيع عام ١٨١٣، حصلت كاترين حينذاك على معاش يبلغ ضعف ما تحصل عليه زوجة أي قائد عام.. ذلك لأنها كانت قد شغفت حباً بنابليون حين كان ضابطاً مجهولاً منذ عشرين عاماً مضت!

مارجريت

في اليوم التالي لإعادة الاستيلاء على قاعدة طولون حصل بونابرت على رتبة جنرال، وعين – بواسطة بارا – قائداً لفرقة المدفعية في حملة إيطاليا. وكان نابليون يطمع بعد ذلك في التقرب من عالم السياسة، إذ لم يكن هناك طريق آخر أكثر ضماناً للوصول إلى مركز القيادة العليا. وفي ذلك الوقت، كان بعض أعضاء حكومة المؤتمر يشرفون على حملة إيطاليا بالاشتراك مع ممثلي الشعب، وجاء من بينهم ريكورد، وكذلك شقيق روبسبيير الشاب..

وكان من الصعب على بونابرت أن يسير قدماً في طريق المجد إذ اكتفى بالدوران في فلك دومربيون القائد العام لحملة إيطاليا، الذي كان رجلاً بسيطاً لا يعرف الدسائس، ولا يقابل نواب الشعب إلا في القليل النادر. وسرعان ما أتيحت الفرصة أمام بونابرت للاتصال بنواب الشعب بدلاً من دومربيون، وكان نابليون يأمل في أن يحل محل دومربيون في مركز القائد العام، وكان يعرف أن أحسن الطرق لتحقيق أمنيته – وربما أقواها أيضاً – هو طريق النساء. وكان هدفه أن يستأثر بثقة شقيق روبسبيير، معتمداً في ذلك على ريكورد.. إذن، لم يبق عليه إلا أن يصل إلى ريكورد هذا..!

كان جان فرانسوا ريكورد متزوجاً، وكانت زوجته قد جاءت معه، ولم يتوان بونابرت في تصويب "بطارياته" عليها.. وكان ريكورد من أواسط

فرنسا، مثله في ذلك مثل بارا. وقد ولد في مدينة جراس عام ١٧٥٩، أي أنه كان يكبر نابليون بعشر سنوات.. وكان من حكومة المؤتمر، ومن ثم فقد كان في صف الذين طالبوا بإعدام الملك لويس السادس عشر، وكان يتمتع بحظوة كبرى لدى روبسبيير وشقيقه.

كان ريكورد قد تزوج قبل حصار قاعدة طولون بثمانية أعوام، من ابنة طبيب جميلة تدعى مارجريت روسينيولي.. وكانت في الحادية والثلاثين من عمرها حين تعرف عليها بونابرت. وكانت مارجريت تستسلم لحب شقيق روبسبيير، لأنها كانت بذلك تضمن مصير زوجها وأسرتها.. إذن فلو أن بونابرت توصل إلى كسب رضا مارجريت، فلن يرفض له شقيق روبسبيير أي طلب!

وراح نابليون يتابع مارجريت ويوليها اهتماماً كبيراً.. فإذا سقط قفازها التقطه لها، وإذا ركبت الحصان أمسك بلجامه، وإذا أخرجت في نزهة سيراً على الأقدام سار إلى جوارها ممسكاً قبعته بيده.. فياله من ذوق، ويا لها من رعاية!.. لقد أحسن هذا الشاب الطموح التصرف حتى نجح آخر الأمر في أن يظفر عن طريقها بثقة روبسبيير وشقيقه معاً.. ومنذ ذلك الحين، نراه يشترك في جميع الدسائس التي دبرت حتى اليوم التاسع من ترميدور!

ووقعت الكارثة في هذا اليوم نفسه، من "جراء قضية اختلاس"، وبذلك قضي على آل روبسبيير وهددت مشروعاتهم.. وأحس نابليون نفسه بقلق كبير على مصيره، لاسيما وأن الحكومة كانت قد أخذت تراقب تحركاته المريبة في إيطاليا.. بل لقد ذهب الأمر إلى حد أنهم

نسبوا إليه أنه قد اشترك مع روبسبيير الصغير في اختلاس بعض الأموال. وباختصار، كان نابليون مهدداً بأن يلقى القبض عليه ثم ينقل إلى باريس تحت حراسة مشددة، ليحاكم هناك أمام محكمة الثورة. أما ريكورد، فقد قبض عليه مع أول من ألقي القبض عليهم، ولكن باراً سيعيد إليه حريته، وسوف نرى ريكورد يشترك فيما بعد في المؤامرات التي دبرت ضد حكومة الإدارة، وسيلقى القبض عليه من جديد لاشتراكه في مؤامرة بابوف، ثم يطلق سراحه مرة أخرى!.. وفي أيام حكومة الإمبراطورية، سوف يوضع تحت رقابة شديدة على الرغم من علاقته الوثيقة الماضية بنابليون حين كان جنرالاً، والذي أصبح الآن إمبراطوراً لفرنسا. وكذلك سوف تأمر حكومة لويس الثامن عشر بنفيه لأنه كان قد اقترع فيما مضى في صف الرأي المنادي بإعدام لويس السادس عشر.

ولكن نابليون لم ينس مارجريت. ومن بين الهبات الكثيرة التي منحها لها ولأسرتها، نكتفي بذكر المنحة الأخيرة التي أخذتها في فبراير عام ١٨١٣، والتي بلغت ثلاثة ملايين وستمائة ألف فرنكا!

ولكن نابليون لم يرسل إلى باريس مقبوضاً عليه كما كان متوقعاً، فقد هدأ غضب نواب الحكومة الذين كانوا يحققون في التهم المنسوبة إليه.. إذن، فهو لن يواجه محكمة الثورة ولا المشنقة، وحتى لن يلقى به في غياهب السجن. أما ما وقع، فلم يرد على هذا الحادث البسيط الذي جعل منه الكثيرون مأساة أسطورية: "كان نابليون يقيم في مدينة نيس بإيطاليا منذ شهر مارس عام ١٧٩٤. وكان يسكن هناك في منزل الكونت لورانتي بالقرب من طريق فيلفرانش القديمة. وكانت علاقته

بالكونت وزوجته الكونتيسة علاقات عائلية إلى حد أنه كان يدعو هذه الأخيرة بوالدته. ومع ذلك، فلسنا ندري هل كان يخفي من ناحية مدام لورانتي عواطف مشبوبة أم لا..

"والذي حدث، أن قرر نواب الشعب إلقاء القبض على نابليون في شهر أغسطس، ولكن الكونت لورانتي تدخل لصالحه على الفور؛ فراح يرجو ويتوسل، حتى كللت وساطته بالنجاح، وأعفى نابليون بفضله من هذا السفر الرهيب إلى باريس".

واكتفى نواب الشعب بأن حكموا بتحديد إقامته في منزل الكونت، حيث يقيم..

وكان عقاباً "جميلاً" فقد استمر بونابرت في تناول وجبات الطعام الشهية مع أسرة الكونت، التي كانت تتكون – عدا الرجل وزوجته – من ولد وفتاتين. وكان نابليون يفضل أميلي – إحدى الفتاتين – التي كانت تشاركه نزهاته تحت أشجار البرتقال..

وتقدم نابليون يطلب يد الفتاة.. فهل كان يرغب حقاً في أن تصبح "إميلي" الصغيرة زوجة له، أم أنه كان يقوم بلعبة الغرض منها صرف الأنظار عن المرأة الحقيقية التي يحبها: مدام لورانتي؟.. ومهما يكن من أمر، فقد قوبل طلبه بالرفض، وبررت الكنيسة رفضها أن ابنتها لا تزال في الرابعة عشرة من عمرها..

وأن ما يلفت النظر حقاً، هو أن أحداً من أسرة لورانتي لم يظهر في باريس أو في قصر التويليري أبان حكم بونابرت. بل أن لورانتي لم

يحظ من نابليون بأية ميزة أو منحة.. وقد علق الكونت على ذلك بقوله: "أن حظوة العلماء لا تمنح إلا لأولئك الذين يلحون في طلبها".

حرب للتسلية

في أغسطس من عام ١٧٩٤ طويت قضية الجنرال بونابرت، ولكنه لم يسترد منصبه كقائد للمدفعية في حملة إيطاليا. وتم الاتفاق على أن يخدم نابليون – في صمت وبغير لقب رسمي – في هيئة أركان حرب الحملة، ومع ذلك يعد في نظر الجميع نائباً لقائد المدفعية الجديد.

وكان نابليون يتوق لأن يتولى إدارة عمليات الجيش، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ إن نائبي الشعب ساليسيتي وألبيت لم يعودا يرغبان في التعاون معه. وفجأة، ظهر في باريس نائب آخر من نواب الشعب يدعى لويس تورو وكان ضابطاً من الحكام، ونائباً في الجمعية التشريعية ثم في مجلس المؤتمر..

كان تورو قد تزوج منذ وقت قريب من فتاة من مدينة فرساي في الرابعة والعشرين تدعى "لويز جوتييه" ولما كان يريد أن يهيئ لزوجته رحلة شهر عسل جميلة على شاطئ البحر المتوسط، فقد قرر أن يسافر إلى هناك في "مهمة رسمية" وفي ٢١ سبتمبر عام ١٧٩٤، نزل تورو في بلدة كيرو ترافقه زوجته الجملية الشابة، وسرعان ما ظهر نابليون في نفس هذه البلدة في اليوم التالي!

ولم يضع الجنرال بونابرت وقتاً، ونصب شباكه على الفور حول الوافدين الجديدين. ومن حسن حظه أن المواطنة تورو كانت لطيفة

للغاية، ولم تكن من النوع المخلص جداً لواجباته الزوجية.. بل لقد كانت من النوع "السخاء" في هذه الناحية بحيث تسببت في انتحار زوجها بعد ذلك بعدة سنوات. واستطاع بونابرت أن يثير فضولها بقامته القصيرة وشكله الفريد.. وسره ذلك أيما سرور.. ولم ينقض وقت طويل، حتى كان قد أمسك في يده بزمام الأمور في القيادة العامة!

وبفضل لويز أيضاً، ارتدى لويس بونابرت – شقيق نابليون – الملابس الفاخرة، وهو الذي كان يظل إلى جوار أخيه بلا عمل، فقد اتفقت عليه عشيقة نابليون وساعدته بالعتاد والسلاح حتى أنعم عليه فجأة برتبة ملازم في المدفعية!

وذات يوم، أراد نابليون أن يسلي عشيقته، فلجأ إلى طريقة غير مألوفة.. فقد جعلها تشاهد حرباً صغيرة أمر بشنها خصيصاً من أجلها. ومن الغريب أن نابليون هو الذي اعترف بذلك في مذكراته التي كتبها في سانت هيلانة ولنقرأ ما كتبه في ذلك:

"كنت حينذاك شاباً حديث السن.. كنت سعيداً وفخوراً بنجاحي في هذا الحب الصغير. ومن ثم فقد حاولت أن أعبر عن سعادتي بكل ما أملكه من طاقة. وأنتم ولا شك ستدركون تواً كيف يمكن أن يكون استغلال النفوذ، وكيف يتعلق مصير الناس أحياناً بشخص من الأشخاص ولكنني لم أكن أسوأ من غيري على أية حال..

"وكنت أصحب لويز للنزهة في المراكز العسكرية بضواحي جبال تاند. وذات مرة، خطر لي أن أجعلها تتمتع بمشاهدة حرب صغيرة،

فأمرت الوحدات الأمامية بأن تشن هجوماً على العدو، وكان هذا الهجوم نزوة عابرة..

وصحيح أننا كسبنا المعركة، ولكن كان من الممكن أن يؤدي هذا الهجوم إلى نتيجة سيئة. وعلى أية حال، فقد خسرنا فيما بعض الرجال..".

وأضاف نابليون بعد ذلك يقول أنه كان يلوم نفسه كثيراً على نزواته هذه مع لويز، كلما عادت ذكراها إلى نفسه..

* * *

وقد أثرت لويز مدة طويلة في حياة بونابرت، ولما صار قائداً عاماً لحملة إيطاليا في عام ١٧٩٦، كان يصطحبها معه – هي وزوجها – وقد انتحر زوجها تورو في نفس ذلك العام..

وأخيراً هجر نابليون عشيقته ولم يرها إلا بعد ذلك بعدة سنوات.. وعندما رآها كان في قمة مجده وثرائه وسلطانه.. أما لويز، فكانت قد أصبحت فقيرة مجهولة، ولكنها أفلحت آخر الأمر في المثول بين يدي الإمبراطور في يوم من أيام عام ١٨١٠، وكان نابليون يصطاد في غابات مدينة فرساي.. وقد ساعدها في ذلك الماريشال برنييه، وكان بدوره من أبناء مدينة فرساي.

وسألها الإمبراطور قائلاً:

– لماذا لم تذهبي إلى أصدقائنا الذين كنا نعرفهم في الجيش في مدينة نيس، فالكثير منهم قد أصبحوا من الشخصيات الكبيرة، وهم على اتصال دائم بي..

فأجابته لويز قائلة:

– لقد انقطعت صلتي للأسف – يا مولاي – بيني وبينهم منذ أن أصبحوا من العظماء، وأصبحت أنا بائسة..

وسر نابليون بإجابتها، وحقق كل أحلام عشيقته السابقة، بل وأكثر من ذلك أيضاً. وبعد هذا اللقاء ببضعة أيام، وقع على مرسوم إمبراطوري بمنح لويز معاشاً سنوياً إمبراطورياً يساوي ما قيمته اليوم مليون وثمانمائة ألف من الفرنكات. ويبدو كذلك أنه قد منحها في العام التالي – إثر فترة قضاها في قصر تريانون بواسطة خادمه الخاص كونستان – مبلغاً كبيراً من المال يقدر اليوم بسبعة ملايين ونصف من الفرنكات..

حقاً إن كرمه كان يفوق الوصف مع النساء اللاتي لم ترفضن له طلباً!

الخطيبة الصغيرة

تعتبر سنة ١٧٩٥ آخر السنوات التي شاهدت نابليون شخصاً مغموراً، وفي أوائل شهر يناير من نفس هذه السنة، ذهب إلى قاعدة طولون لتنظيم حملة ضد كورسيكا. ومن هناك، توجه إلى مارسيليا حيث أقام مع شقيقه الأكبر جوزيف بونابرت. وكان هذا الأخير قد اكتشف في هذه المدينة فتاة وارثة قبيحة الشكل، ولكنها كانت على أخلاق كريمة.. فقدم نفسه إلى أسرتها على أنه الكونت دي بونابرت من ضحايا الثورة، ولم يصادف ثمة صعوبة في التقرب من أسرة كلاري هذه، وكان أهلها من التجار الذين هبط عليهم الثراء، ولذلك كانوا يعشقون كل ما له علاقة بالنبلاء.. وانتهى الأمر بأن تزوج من ابنتهم جولي كلاري..

ولم يكن نابليون قد حضر حفل زفاف شقيقه جوزيف على جولي كلاري، ومن ثم فلم تتح له الفرصة لكي يتعرف على شقيقتها الصغرى أوجيني ديزيريه، التي كانت تحلم بدورها بالزواج..

أما الآن.. فها هو ذا يهبط ضيفاً على شقيقه الأكبر من مارسيليا، فيجد نفسه وجهاً لوجه أمام "ديزيريه"، وعلى الفور، نشأ حب كبير بين الجنرال الشاب وبين هذه الفتاة العاطفية الصغيرة التي كانت تتعجل الزواج.

ولم تكن ديزيريه فتاة متينة الأخلاق، ولاسيما أن رب الأسرة كان متوفياً.. أضف إلى ذلك أن الأخلاق كانت قد بدأت في الانحلال في

عصر الثورة ذاك، ولم يكن لدى هذه الفتاة أي استعداد للصبر أو لسلوك الطريق العادي الذي تسلكه بقية النساء. وكان نابليون من ناحيته لا يعرف من التجارب غير تلك التي مارسها مع النسوة المتساهلات!

ولم تكن ديزيريه فتاة رائعة الحسن والجمال، ولكن في وسع المرء أن يلمس في شفتيها المكتنزتين نهماً للحب وأن يرى في نظراتها شوقاً وحنيناً إلى العاطفة.. فهل سقطت جميع الحواجز بينها وبين بونابرت منذ هذا اللقاء الأول؟ نعم.. وإلا لما عاد نابليون إلى مارسيليا مرة أخرى في ربيع نفس هذا العام، حيث قضى فيها فترة طويلة جديدة..

ولقد كان نابليون صريحاً حينما ذكر – وهو يرقد على فراش الموت – أن دايزيريه لم ترفض له طلباً.. بل لقد أضاف يقول: "أنها كانت تتسلل خفية إلى غرفته لتراوده عن نفسها". والواقع أنه من الصعب أن يتخيل المرء أنه كان كاذباً، فقد أكد استسلامها له في كلمات واضحة لا تقبل الشك، والإنسان لا يكذب عادة وهو على فراش الموت!..

أما عن بقية قصة حبهما، فقد أعلنت خطبتهما أثناء الفترة النهائية التي قضاها في مارسيليا.. ولكن حدث أن تلقى نابليون إثر ذلك أمراً باستدعائه لتسلم قيادة جديدة في جيش الشرق، ولم يكن هناك بد من أن يسافر – على الفور – لتسلم مهام وظيفته الجديدة.

وفي الثامن من مايو عام ١٧٩٥، غادر نابليون مدينة مرسيليا بعد وداع مؤثر مع خطيبته.. وقد أقسم كل منهما على أن يحب الآخر إلى الأبد، وتعاهدا على أن يتبادلا الصور والخطابات. وكررت ديزيريه

تقول له وهو يستقل العربة: "حافظ جيداً على هذا القسم الذي أقسمته لي".

ولكن هل استطاع أن يحافظ على قسمه هذا لمدة طويلة؟.. لقد كتب إليها أثناء سفره يقول:

"لقد وصلت مدينة أفينيون والحزن يعصر قلبي لفكرة أنني سأظل بعيداً عنك مدة طويلة.. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يخفف من ضيقي وألمي، هو أن خطيبتي الوفية الطيبة ستفكر في كثيراً وستحتفظ نحوي بمشاعرها الجميلة، ولولا هذا لما أصبح موقفي محتملاً!

"إنني لن أتسلم خطاباتك قبل وصولي إلى باريس، وهذا ما يخفف عن نفسي كآبة الطريق؛ فتصرفي بحيث أتلقى خطاباتك – على الأقل – منذ لحظة وصولي، ولقد منعني فيضان نهر لادورانس من الوصول إلى هنا قبل ذلك، وغدا أصل إلى مدينة ليون.. وداعاً يا صديقتي الطيبة الحنون، وتقبلي ذكرى حب سيكون ملكاً لك مدى الحياة".

ومع ذلك، وجد نابليون بعض التسلية أثناء الطريق!.. فقد عرج وهو في مدينة فالانس على بيت ريفي وفي عزمه أن يشتريه.. وهناك قابل بعض صديقاته، حيث قضى بينهن أسبوعاً كاملاً، ثم واصل السير عائداً إلى باريس.

وفي العاصمة، كان نابولين يفكر في خطيبته من وقت لآخر، ويبدو أنه لم يكن يفعل ذلك إلا لكي يضع نهاية لموضوعها؛ فقد كان يمني النفس حينئذ بآمال عسكرية وسياسية كبرى، وكان الانتظار يجعله

عصبياً على الرغم من نصائح بارا له بأن يتذرع بالصبر، وكان باراً قد أصبح حامياً له من جديد.. إذن فلم يعد نابليون يتمسك بالزواج من ديزيريه، ورويداً رويداً، قلت المراسلات بين الخطيبين. وكانت من ناحيتها تلومه على ذلك، خاصة وأن الأخبار كانت قد واتتها بأنه كثيراً ما شوهد وهو يتنزه في غابة بولونيا في صحبة إحدى ملكات الجمال في ذلك الوقت، وهي السيدة تيريزا زوجة تاليان. وكتبت ديزيريه تقول له: "آمل ألا تنساك نزهاتك في غابة بولونيا مع مدام تاليان، خطيبتك الصغيرة الطيبة أو جيني ديزيريه!".

زواج لم يتم

كان هدف نابليون واحداً لا يتغير: هو الزوج من امرأة ثرية حتى ولو كانت في سن والدته!.. وهو لم يكف عن محاولة تحقيق هدفه هذا حتى خلال الفترة ما بين يونيه وأكتوبر، وهي الفترة التي أتيحت له فيها أعظم فرصة في حياتي. أن "الدوطة" الخاصة بجولي كلاري غيرت مجرى حياة شقيقه جوزيف، فجعلته يعيش في بحبوحة من العيش بدلاً من تلك الحياة البائسة التي كان قد تردى فيها.. فلماذا لا يفعل نفس الشيئ؟

كان بارا يسكن في ذلك الوقت عند سيدة بدينة في العقد السادس من عمرها تدعى مارجريت مونتونزيه، وكان أصدقاؤها يطلقون عليها اسم مارجريت. وكانت مارجريت هذه مشهورة — في بداية حياتها — في عالم الحب والهيام، فهي قد أسعدت نبلاء كثيرين أيام العهد الملكي البائد، وتبعت ذات مرة رجلاً ثريا من رجال المال إلى جزر المارتينيك، ثم انفصلت عنه واشتغلت مصممة أزياء في مدينة سان دومنجو، وأخيراً عادت إلى فرنسا..

وفي باريس، لمع نجمها مرة أخرى في عالم الغرام.. ولما أصبحت سيدة ثريا حقاً، غيرت من عملها واشتغلت بالمسرح، وزاد نفوذها فيه حتى صار مديرة لعدة مسارح وفرق تمثيلية في "روان" و"هافر" و"فرساي"، كما صارت مديرة لجميع المسارح التابعة للبلاط. وكانت الملكة ماري أنطوانيت تستشيرها في كل صغيرة وكبيرة من شئون

المسرح.. وألقى القبض على مارجريت خلال الثورة، ولكن حوادث اليوم التاسع من ترميدون أنقذت رقبتها من المقصلة.. وكان الفضل في إنقاذها لـ"بارا". ومنذ ذلك الحين توثقت العلاقة بينه وبينها، فقدمت له شقة فاخرة في شارع الباليه رويال، وكانت تملك جزءاً طيباً من هذا الشارع.

وكان نابليون يذهب إلى هناك كل يوم لزيارة الرجل الذي يحميه، ليشكو له الحظ الذي أبطأ كثيراً في الابتسام له.. ولكن بارا كان يواسيه قائلاً: ((انتظر، فسيأتي دورنا لا محالة!".. وذات يوم، إثر شكوى طويلة من نابليون، قال له بارا:

– هل تريد أن يصعد نجمك بسرعة؟ حسناً.. إنني سأدلك على الوسيلة، إنها تتلخص في كلمة واحدة: الزواج.. إننا كنا نفعل ذلك أيام الحكم البائد.. وقد رأيت الكثير يفعلونه الآن أيضاً.. فجميع نبلائنا الذين أفلسوا أو ولدوا فقراء، كانوا يتربصون بفتيات التجار ورجال المال الأثرياء.. وكانوا لا يدعون واحدة منهن تفلت.. ولو أمهلتني بعض الوقت للتفكير، لعثرت لك على واحدة.. إنني واثق من ذلك..

ولم يكن "بارا" يشك في أن كلامه هذا يلاقي قبولاً حسناً من نفس نابليون لأنه كان صدى لأفكاره..

وذات يوم، بينما كان الرجلان يتحدثان معاً في شقة، دخلت السيدة مونتونزيه في غير كلفة.. وما هي إلا لحظات: حتى أخذ ثلاثتهم يتحدثون عن أحداث الثورة وقالت مارجريت تحدث بارا وبونابرت:

– إنكما ستخرجون منها سالمين؛ فأنتما رجلان، بل ومن رجال الجيش بالذات. وحينما تنجوان من الموت، سرعان ما يواتيكما المجد

وتفعلان ما تشاءان .. أما نحن معشر النساء المنطويات، فليس لنا من سند أو نصير. إننا معرضات لكل صنوف الذل والهوان، ومغلوبات على أمرنا على الدوام، وقصارى القول أننا ملك للمنتصر أيًّا كان، لأننا لا نستطيع أن نحارب..

وأضافت تقول في رقة وهي تنقل بصرها بين بارا وبونابرت:

– آه !.. لو كانت مشيئة الله الكريم قد أرادت أن أكون رجلاً!.. إنني كنت خليقة بألا أدعكما تذهبان وحدكما إلى خط النار!

فقال نابليون يسألها في اهتمام:

– هل تعيش سيدتي إذن بغير زوج؟.. إذ يجب على الأقل أن تكوني واثقة من أنك ستجدين من يدافع عنك في الوقت المناسب!

وحينئذ أخبره بارا بأن محدثته هي المليونيرة مارجريت مونتونزيه، وعبرت مارجريت مرة أخرى عن عرمانها بالجميل، فقالت وهي توجه حديثها إلى نابليون:

– إنني مدينة له بحياتي.. وأنا سعيدة جداً لأنه تفضل وقبل أن يسكن عندي فهو الذي يحميني دائماً من الصواعق!

فقال بونابرت:

– ومن ذا الذي لا يشعر بالسرور من حمايته لك يا سيدتي؟.. إن المواطن بارا له أصدقاء كثيرون، ويسرهم جميعاً أن يتطوعوا مثله لحمايتك..

فقال مارجريت وهي تبتسم له ابتسامة عذبة:

– الحق أقول لك أنه لما يسعدني كثيراً أن يكون أصدقاء بارا أصدقائي.

واقتربت من نابليون وربتت على رأسه مداعبة في غير كلفة، ثم انسحبت خارجة بعد أن وجهت الدعوة إلى القائدين لتناول العشاء معها..

وما أن غادرت الغرفة، حتى راح نابليون يستفسر من بارا في شغف عن مقدار ثروتها بالضبط، وبعد قليل من الوقت، ذهب بارا ليجس نبضها من ناحية نابليون؛ فترددت في بادئ الأمر، ولكنه ما لبث أن تغلب على ترددها. وأخيراً حل موعد العشاء، واجتمع ثلاثتهم على مائدة الطعام من جديد..

وأخذ بارا مكانه إلى جوار مارجريت، بينما جلس نابليون قبالتها ليقوم صديقه بواجبات التعريف، ونظر كل من نابليون ومارجريت في عيني الآخر..

وبعد أن فرغ الجميع من تناول العشاء، بدا نابليون ومارجريت في الاتفاق.

ويحكى بارا في مذكراته أنه سمعهما يقولان: "إننا سنفعل كذا.. وكذا.." وتحدث معها نابليون عن أسرته، وكيف أن "والدته وأخواته سيقدرون جميعاً سيدة ممتازة مثلها" أنه سيأخذها معه يوماً إلى جزيرة كورسيكا حالما تسنح الظروف بذلك، "فهي بلاد رائعة وجوها جميل، ويستطيع المرء أن يثري فيها سريعاً.. وقد استطاع الكثيرون أن يضاعفوا فيها رءوس أموالهم المتواضعة في سنوات قليلة" وفكر بارا في نفسه

قائلاً: "إنهما يبنيان في كورسيكا قصوراً على الرمال" وأخيراً، انسحب في صمت تاركاً نابليون وخطيبته على انفراد.

ولكن هذا الزواج لم يتم، إذ كان مقدراً أن تدفع أحداث شهر فوندمبير بمصير نابليون سريعاً إلى الأمام، وأن يصبح – بعد فترة وجيزة – قائداً عاماً لجيش فرنسا في الداخل، فتتفتح أمامه آمال أخرى، وينسى مارجريت.. وهل من المعقول أن يكتفي بزوجة بدينة، فيجد نفسه مضطراً إلى إهمالها أو تركها هناك في كورسيكا كيلا يظهر معه في باريس؟

وقد عرف المعاصرون لنابليون بمشروع هذا الزواج.. وذات يوم من شهر يناير عام ١٨١٢، كان أحد الكتاب المشهورين يتفرج مع صديقه له من الرسامين على معرض للصور في شارع الباليه رويال. وتصادف أن مرت سيدة عجوز، فدار بينهما الحديث التالي:

– هل تعرف هذه السيدة؟

– كلا.. من هي؟

– إنها مارجريت مونتونزيه..

– آه!.. أليست هي مديرة المسارح؟..

– نعم.. إنها كانت في بادئ الأمر مديرة لمسرح قصر فرساي بأمر من الملكة ماري أنطوانيت. ولما حققت من وراء ذلك ثروة طائلة، أراد بارا أن يخدم قائداً معيناً، فأعد مشروعاً لتزويجه من هذه السيدة..

– ومن كان هذا القائد؟

فهمس الرجل في أذن صديقه قائلاً:

– نابليون بونابرت!

غرام نابليون بزوجته الأولى جوزيف

جوزيفين

إذا كان نابليون لم يتزوج من مارجريت مونتونزبه في خريف عام ١٧٩٥، فذلك لأنه قابل سيدة أخرى تصلح لأن تكون زوجة له.. برغم أنه لم يدخل في حسبانه أنه سيتزوج من هذه السيدة الأخرى. ولكنها بدأت تستولي على قلبه منذ اليوم التالي لأحداث فوندميير، ويمكننا أن نقول أن هذه المرأة كان يحتمل أن تغدو الوحيدة في حياته.. ونحن لا نعني بذلك أنها كانت الزوجة المثالية الجديرة بهذا الرجل الفذ، فقد كان لها في اليوم الثالث عشر من فوندميير تاريخ آخر..!

فمن هي إذن هذه المرأة؟..

إنها كانت من خليط فرنسي وأجنبي، وكانت قد جربت من قبل سعادة الزواج وشقائه حين كان نابليون لا يزال فتى صغيراً في كلية بريين العسكرية. وكانت تدعى "روز لاباجوري" ثم ورثت اسم "الفيكونتيسة دى بوهارنيه" عن أول زوج لها. وفي شهر فوندميير من العام الرابع للثورة، كانت مدام دي بوهارنيه أرملة منذ أكثر من عام، لأن زوجها الفيكونت الجنرال دي بوهارنيه كان قد أعدم رمياً بالرصاص قبل سقوط روبسبيير بأربعة أيام..

إن هذه المرأة هي جوزيفين، وكانت من السيدات اللاتي يترددن دائماً على الصالون الأول في فرنسا، وهو صالون مدام تاليان، الذي كان قد أصبح وكأنه بلاط جمهوري آخر، ولم تكن جوزيفين صغيرة السن أو

على جانب كبير من الجمال، وكان لها ابن وبنتان كبيرتان هما أوجين وهورتانس وكانت تحرص على ألا تظهر معهما كثيراً كيلا ينكشف عمرها الحقيقي، فقد كان من عادتها – كما يقول نابليون نفسه – أن تنقص من عمرها الحقيقي اثنتي عشرة سنة..

فمن أين كانت تعيش مدام دى بوهارنيه؟.. وكيف كان يتأتى لها المال الذي يتيح لها الترف الذي كانت تنعم به؟.. حقاً إنها لم تكن تعيش مثل علية السيدات في المجتمع، ولكنها كانت تحيا حياة لامعة، في بذخ ظاهر يوحي بأنها كانت تملك موارد مالية ضخمة.. والواقع أن أحداً لم يكن يعرف مواردها الحقيقية سوى أولئك الذين كانوا يقرضونها المال.. لقد كانت سيدة من النوع الذي يجمع بين فخامة الحياة، وقلق الاستدانة!

وكان بونابرت رجلاً لا خبرة له بهذا النوع من المجتمع الذي كانت تظهر فيه هذه المرأة، ولذا فقد أذهله "لقب الفيكونتيسة" الذي كانت تتحلى به اغتصاباً بعد وفاة زوجها، كما أدهشته مظاهر العظمة التي كانت تمثلها.. ولم يكن يدري أن هذا كله لا يعدو أن يكون "ذرا للرماد في العيون" على حد قوله فيما بعد. لقد ظن – كما يقول في مذكراته – أن "البريق ينبعث من فضة حقيقية، وأن الطلاء ينم عن خشب ثمين".. لقد نظر إليها على أنها سيدة من المجتمع الراقي.. وها نحن أولاء نراه يحاول أن يسعى إلى مدام بوهارنيه، التي سيلقبها بجوزفين منذ ذلك الحين.. وكانت قد سميت عند تعميدها شميث ماري جوزيف روز، نسبة إلى والدها جوزيف، ووالدتها روز..

كانت جوزيفين بالنسبة له سيدة "مغرية" لا نستطيع أن نجد كلمة أخرى نصفها بها غير هذه الصفة، وهي من ناحيتها كانت متخصصة في صيد الرجال العسكريين، وكان "بارا" من أشهر عشاقها، وكذلك "الجنرال هوش".. وسيكون من أشهرهم أيضاً "الكابتن شارل هيبوليت" و"الجنرال مورا". وكان الجنرال بونابرت ينتمي لهذه الفئة التي تميل إليها جوزيفين.

وقد تضاربت الأقوال حول موعد بداية قصة هذا الحب، ولكن الشيء المؤكد، هو أنهما لم يقررا الزواج إلا قبل رحيل الجنرال بونابرت إلى إيطاليا بوقت وجيز. وسيحدث بين العشيقين لقاء مؤثر قبل زواجهما بخمسة عشر يوماً، أي إبان المشاورات السرية التي كانت تجريها حكومة الإدارة بشأن تعيين بونابرت قائداً عاماً لجيش إيطاليا.. وإن ما يلفت النظر حقاً، هو أن نابليون سيذكر هذا اللقاء المؤثر في أحد خطاباته، وذلك في صدد الحديث عن "أخطاء" جوزيفين وماضيها الثقيل الوطأة.. ولكن كان ينبغي عليه أن يغفر لها، فقد كان لهذه المرأة دور كبير في تحديد مصيره، فهي التي منحته القيادة المهمة التي كان يحلم بها، هدية منها مع عقد الزواج.. ولذا نراه يعود دائماً إلى جوزيفين الخبيرة ليركع تحت قدميها وكأنه مذنب صغير!

وبعد. هل كانت جوزيفين جميلة؟

لقد وصفها معاصروها بأنها الرقة والدلال والفتنة، وكان فمها جميلاً للغاية، ولكن جسمها كان به بعض العيوب، مثل كبر حجم القدمين، وقصر القامة.. أما بداها فلم تكن تنقصهما الرقة والجمال.

وخلافاً لذلك، كان في وسع أي إنسان يراها أن يقدر عمرها بأربعين عاماً إذن فهي أكبر سناً من بونابرت بكثير.. ولكن ها هو ذا "بارا" يحثه على الزواج منها، فهي تنتمي إلى العهد البائد والعهد الحاضر في آن واحد، فضلاً عن أن زواجه من سيدة فرنسية "سيثبت قدميه"، وينزع عنه الاسم الكورسيكي، لأنه سيصبح حينئذ "فرنسياً تماماً".

وبالإضافة إلى ذلك، كان نابليون يعتقد أنها ثرية.. وقد قال وهو في سانت هيلانة: "إنني لم أتزوج من جوزيفين إلا لأنني كنت أعتقد أنها على جانب عظيم من الثراء، وكثيراً ما كانت تردد هي ذلك". وقد اكتشف بعد ذلك بالطبع أنه قد أخطأ التقدير. وعلى أية حال، فقد كان نابليون يعتقد أنه عقد "صفقة طيبة".

والواقع أن من الصعب على المرء أن يقرر ما إذا كان نابليون يعدها جميلة. والمرء لا يستطيع أن يستنتج من خطابات الغرام العديدة التي كتبها نابليون إلى جوزيفين أنه كان مفتوناً بأشياء مثل جمال وجهها وسحر عينيها أو لون شعرها، وغير ذلك مما يفتن العشاق، وإنما يبدو فقط أنه كان معجباً بجسدها ومداعباتها اللطيفة..

والظاهر أنه اكتشف مهارتها في مسائل الهوى ومداعبات الغرام إثر ليلة حافلة استخدمت فيها جوزيفين كل خبرتها ومواهبها. ولم يكن من ناحيته يشك قط في أنها امرأة مجربة، فقد كتب يقول لها في اليوم التالي: "آه.. لقد لاحظت هذه الليلة فقط أنك لست امرأة عادية". وكتب إليها بعد ذلك بمدة وجيزة: "لو أنك كنت أكثر سذاجة وأصغر سناً لما أحببتك كل هذا الحب!"..

ولما تم عقد الزواج، غادر نابليون باريس على عجل ليتسلم مقاليد القيادة العليا في جيش إيطاليا، فبدأت بذلك هذه السلسلة الخالدة من خطابات الغرام الملتهبة التي بلغت العنف حد الهذيان.. والتي أسهمت في خلق الأساطير حول قصة حبهما.. ومع ذلك فنحن لم نطلع على كل هذه الخطابات، إذ يلاحظ المرء هنا وهناك فجوات زمنية كبيرة تصل أحياناً إلى عشرين يوماً، بينما أكد نابليون إنه كان يكتب إليها ثلاث مرات أو أربع مرات كل يوم! أما جوزيفين، فكانت تكتفي أحياناً بخطاب واحد من جانبها. ومن ناحية أخرى فنحن لا نملك بين أيدينا النص الكامل الصحيح لكل هذه الخطابات المنشورة، وقد غيرت بعض سطور هذه الخطابات.

* * *

توقف نابليون في مدينة شاتيون في الثالث عشر من مارس عام ١٧٩٦. وفي اليوم التالي، كتب إلى جوزيفين هذا الخطاب من مدينة شانسو:

"إن كل لحظة تبعدني عنك، تجعلني أقل احتمالاً لهذا الفراق.. فإن الشيء الذي أفكر فيه على الدوام هو أنت. وأحاول عبثاً أن أتخيل ما تفعلين بالضبط.. فإذا رأيتك حزينة، يتمزق قلبي وتزداد آلامي، وإذا رأيتك سعيدة تمرحين مع أصدقائك، لا أملك نفسي من توجيه الوم إليك، لأنك قد نسيت بسرعة هذا الفراق المؤلم الذي دام ثلاثة أيام. وأقول لنفسي أنها مرحة وغير مكترثة بي، ومن ثم فهي لا تحس من ناحيتي بشعور عميق..!

"وكما ترين، فإنه من الصعب إرضائي.. ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف في حالة ما إذا فكرت في أنك قد تكونين مريضة، أو حزينة لسبب أجهله؛ فحينئذ يتملكني الغضب لأنني بعيد عنك!

"وإذا سألني أحدهم: هل نمت جيداً ليلة أمس؟. أشعر – قبل أن أجيب عن سؤاله – بأنني في حاجة إلى خطاب منك يؤكد لي أنك مرتاحة في كل شيئ.. ذلك أن المرض وغضب الناس لا يؤثران في نفسي إلا إذا كان سببين لألمك لمكروه يصيبك!

"يا صديقتي المعبودة.. إنني لا أطلب من عبقريتي التي حفظتني دائماً وسط المخاطر والمهالك سوى أن تحيط بك في رفق، ولست أتمنى شيئاً قدر أن أقدم لك نفسي مجردة من هذه العبقرية. آه! لا تكوني مرحة كل المرح يا عزيزتي، وإنما حزينة بعض الشيئ.. كلا!.. بل يجب أن تكون نفسك خالية تماماً من الحزن، وأن يكون جسمك الجميل خالياً من المرض.. اكتبي إلي يا صديقتي الحنون، واطنبي في رسائلك.. وتقبلي من أكثر القلوب حناناً وإخلاصاً "ألف قبلة وقبلة".

وبعد هذا الخطاب، توجد فجوة زمنية مدتها ستة عشر يوماً تفصل بينه وبين الخطاب التالي، وهو الخطاب المؤرخ في ٣٠ مارس من مدينة نيس:

"إنني لم أكف عن حبك يوماً واحدًا.. ولم أتناول قدحاً من الشاي دون أن ألعن المجد والطموح اللذين يفرقان بيني وبين روحي وحياتي. وسواء كنت في غمرة العمل، أو على رأس الجيوش، أو ممتطياً صهوة جوادي أطوف به بين معسكرات الجند، فإن معبودتي جوزيفين

وحدها هي التي تشغل كل قلبي وتستحوذ على تفكيري. وإذا حدث وابتعدت عنك بسرعة جريان نهر الراين، فإنني لا أفعل ذلك ألا لكي أعجل بلقائك من جديد. وإذا استيقظت من نومي في حلكة الليل لا واصل العمل، فليس لي من دافع لذلك سوى أن أقدم موعد وصول صديقتي الجميلة بضعة أيام. وبرغم ذلك، أجدك تخاطبني قائلة: "أنتم"، في خطابك المؤرخ في ١٣ مارس عام ١٧٩٦.

"جوزيفين يا زوجتي المعبودة! كم من الدول تفصل بيننا، وكم من الوقت ينقضي قبل أن تصلك خطاباتي.. إنني لا أعرف المصير الذي ينتظرني، ولكن شجاعتي ستخونني إذا ما ابتعدت عنك أكثر من ذلك. لقد كان هناك وقت أفخر فيه بشجاعتي، وكنت أتصور أعظم الكوارث هولاً دون أن أشعر بالدهشة أو يطرف لي جفن أما اليوم، فإن مجرد التفكير في أن حبيبتي قد تصاب بأذى كفيل بأن يجمد الدم في عروقي، فتذبل روحي.

"آه! أيتها القاسية!.. كيف استطعت أن تكتبي هذا الخطاب البارد كالثلج؟ ثم، ما الذي كنت تفعلينه في المدة ما بين الثالث عشر والسادس عشر من مارس إذا كنت لا تكتبين لزوجك؟

"إن كلمة "أنتم" هذه، وتلك الأيام الأربعة التي لم تكتبي فيها إليّ، تجعلني أندم على عدم اكتراثي القديم.. والويل لمن يكون سبب ندمي!.. إنه يجب أن يشعر بنفس ما أشعر به من عذاب وألم..

"إن روحي حزينة وقلبي أسير، والأوهام تبعث الخوف في نفسي.. فأنت تحبينني بدرجة أقل من ذي قبل، ولعلك تجدين العزاء في

صديق ما.. وربما تكفين عن حبي في يوم من الأيام.. صارحيني بذلك إذن كي أعرف على الأقل كيف أتوقع الكارثة..

"وداعاً يا عذابي وسعادتي وأمل حياتي.. وداعاً يا من أحبها وأخشاها.. يا من توحين إلي بأرق المشاعر وأشدها عنفاً. إنني لا أطلب منك حباً أبدياً وإخلاصاً دائماً، وإنما أريد الحقيقة كل الحقيقة، والصراحة كل الصراحة. وسيكون اليوم الذي تقولين لي فيه: إن حبي لك لم يعد كما كان، آخر يوم أشعر فيه بالحب أو آخر يوم في حياتي. وإذا كان قلبي لا يستطيع أن يكف عن حبك، فإنني سأمزقه بأسناني أرباً أرباً.

"جوزيفين!.. تذكري ما كنت أقوله لك أحياناً: لقد وهبتني الطبيعة روحاً قوية وعزماً لا يلين، بينما خلقت أنت من الدانتيلا الرقيقة والحرير الشفاف. فهل حقاً كففت عن حبي؟.. معذرة يا روح حياتي، فنفسي مشغولة بمشاريع كبيرة، وقلبي مليء بالمخاوف..

"وداعاً!.. واعلمي أنك لو كنت تحبينني أقل، فمعنى ذلك أنك لم تحبيني أبداً.. وحينئذ أكون رجلاً يستحق الرثاء!".

ملاحظة: لقد تغير وجه الحرب تماماً في هذه السنة يا عزيزتي. وقد أمرت بتوزيع اللحم والخبز على الجند، والعليق على الخيول.. وسيمضي فرساني المسلحون قدماً إلى الأمام.. إن جنودي يمنحونني ثقة لا حد لها، غير أنك أنت التي تثيرين أحزاني.. أرسل قبلة لأولادك الذين لا تتحدثين عنهم قط، مع أن ذلك خليق بأن تطيل خطاباتنا بمقدار النصف! وداعاً يا امرأة، وأي امرأة!!".

وفي الثالث من أبريل، تلقى نابليون عدة خطابات من جوزيفين، يبدو أن أحدها كان يتجاوب مع مشاعره؛ فكتب إليها على الفور هذا الخطاب الملتهب:

"لقد تسلمت جميع خطاباتك، ولكن أحدها لم يؤثر في نفسي مثل تأثير خطابك الأخير.. يا له من أسلوب، ويا لها من مشاعر تلك التي تتحدثين عنها!.. إنها من نار، ولذا فهي تحرق قلبي المسكين!

"جوزيفين يا حبيبتي الوحيدة.. إنني أفقد بهجتي وأنا بعيد عنك، وتصبح الدنيا صحراء موحشة أظل فيها وحيداً بغير متعة.. فبأي فن عرفت كيف تستحوذين علي قلبي وكياني؟

"ها أنذا أحس بأني أكاد أختنق..

"جوزيفين.. يا من ساقها القدر إليّ لتقطع معي طريق الحياة المؤلم الشاق.. سأتوقف الآن عن الكتابة فنفسي حزينة وجسمي متعب.. إنني الآن في يورموريس بالقرب من أونيليا.. وغدا يتحرك الجيشان ويحاول كل منا أن يخدع الآخر. وسيكون النصر حليفاً لمن هو أكثر دهاء وأشد مكراً!

"إنني مسرور جداً في غريمي بوليو، فهو أقوى من سلفه بكثير، فضلاً عن أن يجيد المناورة، وأتعشم أن أهزمه هزيمة نكراء .. فكوني مطمئنة.

"جوزيفين.. أحبيني كما تحبين عينيك.. كلا، ليس هذا كافياً، أحبيني كما تحبين نفسك، وأكثر من نفسك.. أحبيني أكثر مما تحبين روحك وحياتك وأفكارك.. أحبيني أكثر من كل شيء.. أنني أهذي يا

صديقتي المعبودة! وليس هذا بالأمر الغريب، لأن طبيعة الرجل العنيف تكون أحياناً طبيعة ضعيفة".

"وداعاً، وداعاَ.. إنني أنام دون أن تكون إلى جواري.. نعم، أنني سأنام بدونك.. فدعيني أنم. لقد مضت عدة ليال وأنا أشعر بأنك بين ذراعي! يا له من حلم جميل!.. ولمن وا أسفاه! فحينما استيقظ، أجد نفسي وحدي بعيداً عنك".

وبعد ذلك بيومين، تأثر نابليون تأثراً كبيراً لوفاة أحد أصدقائه فجأة، فكتب إلى زوجته يقول:

"الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل.. وقد تسلمت منذ لحظة رسالة مؤلمة تحمل إليَّ خبر وفاة "شوفيه" الذي كان قوميسييرا دائماً في رئاسة الجيش.. وأعتقد أنك تعرفينه، فقد كنت ترينه أحياناً عند بارا..

"إنني أشعر بالحاجة إلى من يواسيني وعزائي الوحيد هو أن أكتب إليك.. فأنت وحدك تستطيعين أن تؤثري على حالتي النفسية، وأنت وحدك من أكاشفها بأحزاني.. ما هو المستقبل؟.. وما هو الماضي؟.. وماذا نحن؟.. إننا نمضي ونموت وسط غرائب المجهول.. فهل من الممكن أن يكون الرهبان والمنجمون والمشعوذون قد استغلوا هذا الغموض الذي نعيش فيه كي يوجهوا أفكارنا وفق أهوائهم؟

"لقد مات شو فيه، كان صديقي الحميم.. إنه كان يؤدي للوطن خدمات جليلة، وكانت آخر كلماته أنه خارج ليلحق بي.. ومازلت أرى شبحه يهيم أمامي وهو يصفر كعادته.. يا للجنون!.. أذرف الدموع من

أجل الصداقة.. ومن ذا الذي يستطيع أن يمنعني من أن أذرف دموعاً لا تصلح من الأمر شيئاً؟!

"جوزيفين يا روح حياتي.. أُكتبي إليَّ مع كل بريد.. فأنا لا أعيش إلا بذلك. إنني مشغول للغاية.. فإن "بوليو" يحرك جيشه، وكل منا يقف في مواجهة الآخر. إنني متعب بعض الشيء لأني أمتطي جوادي طيلة الوقت..

"وداعاً، وداعاً.. إنني ذاهب لأنام؛ فالنوم يواسيني لأنه يجعلك إلى جواري، ويتيح لي أن أضمك بين ذراعيّ.. تحياتي الخاصة إلى بارا وتاليان وزوجته".

* * *

وكانت "جوزيفين" لطيفة معه هذه المرة، فأجابت عليه بالطريقة التي يحبها، بل لقد أكدت له أنها كتبت الخطاب بمداد من دمها، ولكنها لم تكن مستعدة بالطبع لمعاودة الكرة، أما هو فقد استمر في الكتابة إليها كعادته..

وبعد فراق دام قرابة شهرين، أخذ نابليون يحثها على الحضور إليه لتقاسمه حياته في مركز القيادة العامة. وكتب إليها يقول:

"إنك لم تكتبي إليَّ منذ أيام.. فما الذي تفعلينه الآن؟.. إنني لا أشعر بالغيرة، وإنما بالقلق.. تعالى إليَّ بسرعة. أما إذا تأخرت فستجدينني مريضاً لا محالة فإن التعب وبعدك عني أمران لا يمكن احتمالهما على الإطلاق.

"أتركي باريس واحضري مع جونو عند عودته.. هل تفهمين ذلك؟ وإن لم يعد على الفور، فأخبريه بألا يعود أبداً.. يا للكارثة التي تنتظرني إذا رأيته يعود بمفرده! ولكنك ستأتين.. أليس كذلك؟.. نعم، إنك ستكونين هنا بعد قليل إلى جواري، وعلى صدري، وبين ذراعي..

"خذي أجنحة وتعالى سريعاً.. نعم، سريعاً.. ولكن سافري على مهل، فالطريق طويل وشاق.. تعالي على مهل يا صديقتي المعبودة، وكوني على اتصال دائم بي عن طريق أفكارك..

"لقد تسلمت خطاباً من هورتانس.. إنها لطيفة للغاية، وسأكتب لها حالاً، فأنا أحبها كثيراً.. وسوف أرسل إليها العطور التي تريدها.

"إنني لا أعرف ما إذا كنت في حاجة إلى المال.. وإذا كان الأمر كذلك، فاطلبي ما تحتاجين من أخي، فقد أودعت عنده مائتي فرنكا من الذهب. أما إذا كنت تريدين توظيف أحد، ففي وسعك أن ترسليه إليَّ، وسأوظفه في الحال.. وفي وسع شاتورينو أن يأتي كذلك".

ولم تهتم "جوزيفين" بالأمر، بل لقد كانت تسخر من خطاباته المحمومة، وتصفها بأنها لا تعدو أن تكون "هذيانا".. وراح نابليون يكرر توسلاته، فكتب إليها في ٢٩ أبريل يقول:

"جوزيفين يا حبيبتي.. إن مورا – الذي سوف يسلمك هذا الخطاب – سيشرح لك ما فعلته وما سأفعله. لقد عقدت اتفاقاً لوقف إطلاق النار بيننا وبين ملك سردينيا. ولقد كتبت إليك مع جونو أن تأتي معه. ولكن مورا سيصلك قبل ذلك لأن سيسافر عن طريق تورينو..

وهأنذا الآن أرجو منك أن تأتي مع مورا عن طريق تورينو، لأنك ستوفرين بذلك خمسة عشر يوماً..

"إنني أعددت لك مسكناً في مدينة ماندوفي، ومسكناً آخر في مدينة تورتوني. ومن موندوفي، يمكنك الذهاب إلى جنوا ونيس، أو إلى أي مكان تشائين.. إن سعادتي أن تكوني سعيدة، ولذتي أن تشعري باللذة. أن امرأة غيرك لم تمنح قط مثل هذا الحب والإخلاص والحنان. وإذا لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لك، فيا للطامة الكبرى!.. حينئذ سألعن عمى بصيرتي. ولن يفتح قلبي بعد ذلك لأي شعور بالسرور أو الحب.. إن حياتي ستصبح حينئذ حياة مادية حسية لا روح فيها ولعلني أوفق في لقاء الموت في ميدان الشرف..

"كيف تطلبين مني ألا أكون حزيناً، وأنت لا تكتبين إلي إلا مرة واحدة كل أربعة أيام؟.. إنك لو كنت تحبينني حقاً لكتبت إلي مرتين كل يوم، ولكن يبدو أنك تفضلين اللعب مع هؤلاء السادة الصغار الذين يزورونك ابتداء من الساعة العاشرة صباحاً، ثم تثرثرين معهم وتستمعين إلى شائعات وسخافات مائة صعلوك وصعلوك حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. ولكن البلاد التي توجد فيها أخلاق، يذهب كل مواطن فيها إلى بيته في الساعة العاشرة مساء. والنساء في مثل هذه البلاد يكتبن إلى أزواجهن ويفكرن فيهم، ولا يعشن إلا من أجلهم.. إنك بالنسبة إلي يا جوزيفين مخلوق غامض لا أستطيع فهمه..

"إنني أحبك كل يوم أكثر من ذي قبل، فالبعد قد يخفف حدة العواطف الصغيرة ولكنه يلهب العواطف الكبيرة.. إليك قبلة على

شفتيك، وأخرى على قلبك الذي لا يوجد فيه أحد سواه.. أليس كذلك؟..

ملاحظة: لدي هنا خيول وعربات كثيرة، ستكون كلها تحت تصرفك.. ولا تحضري معك إلا متاعك الشخصي الضروري.. إنني أحتفظ لك بطاقم جميل من الفضة، سوف ينفعك كثيراً.. وداعاً يا معبودتي فالعمل يناديني!"

ولكن جوزيفين كانت لا تريد أن تسافر إلى إيطاليا مهما كان السبب.. ولما بات من الضروري أن تختلق حجة للبقاء في باريس، لم تجد خيراً من أن تدعي أنها حامل. وها هو ذا يكتب إليها في مزيج من الدهشة والذهول من أجل الخبر السعيد:

"أصحيح إذن أنك حامل؟.. لقد قال لي مورا ذلك، ولكنه يقول أيضاً أن هذا يجعلك مريضة، ومن ثم فليس من الخير أن تقومي بمثل هذا السفر الطويل. ومعنى هذا أنني سأظل محروماً من متعة ضمك بين ذراعيّ شهوراً أخرى عديدة!.. آه!.. هل قدر على أن أحرم من سعادة النظر إليك وأنت حامل؟!.. لا بد أن شكلك الآن لطيف للغاية!

"تكتبين إلي أنك قد تغيرت كثيراً.. وقد لاحظت أنك حزينة وتكتبين بخط مرتعد، فماذا بك أيتها الصديقة المعبودة؟.. آه!.. لا تمكثي في الريف، بل اذهبي إلى المدينة وحاولي أن تسلي نفسك.. وصدقيني أنه ما من شيء يعذبني قدر معرفتي أنك حزينة.. لقد كنت أعتقد أنني أغار عليك، ولكنني أقسم لك أن هذا ليس صحيحاً.. فإنه

ليخيل إلي إنني أفضل أن أقدم – إليك – بنفسي – عشيقاً، إذا كان هذا يبدل حزنك فرحاً وسروراً!

"كوني إذن مرحة سعيدة، فإن سعادتي مرتبطة بسعادتك.. وإذا تركت حبيبتي جوزيفين نفسها فريسة للحزن واليأس، فإنها إذن لا تحبني..! إنني وأولادك سنظل حولك على الدوام كي نغمرك بعنايتنا وحبنا، وليس هناك في الوجود ما هو أجمل من ذلك..!

"إن الأمور هنا تسير سيراً حسناً، ولكنني قلق بدرجة لا يمكن وصفها.. فأنت مريضة بعيدة عني.. اعتني بنفسك جيداً.. فأنت عندي أثمن من الدنيا كلها"

ولم يفقد نابليون الأمل في أنها ستلحق به، فأضاف يقول:

"لست أدري لماذا أشعر بالسرور منذ أن استيقظت هذا الصباح؛ فلديَّ شعور دفين بأنك قد اعتزمت الحضور إلى هنا.. إنك ستأتين بالتأكيد عن طريق بيمونت، لأن هذا أفضل بكثير.. إنك ستحضرين إلى ميلانو حيث الطبيعة الجميلة، وسوف تكونين سعيدة هانئة كل الهناء.. أما أنا، فحضورك يسعدني إلى حد الجنون..

"إنك ستأتين إلى هنا، وستنجبين طفلاً صغيراً جميلاً يشبهك ويحبك كثيراً مثل والده.. ولكن احذري من أن تحبيه أكثر مني، فقد بدأت أغار منه!.. وداعًا يا حبيبتي! تعالي سريعاً لتسمعي موسيقى إيطاليا الجميلة.. إن ايطاليا لا تنقصها سوى رؤيتك.. إنك ستجعلينها أكثر جمالاً – على الأقل في عيني – إنك تعرفين ذلك.. فحينما تكون حبيبتي جوزيفين في مكان ما، فإنني لا أرى سواها".

واكتفت جوزيفين بأن أبلغته بأنها مريضة، وبأن هناك ثلاثة من الأطباء حول فراشها.. فكتب إليها نابليون خطاباً عنيفاً قال فيه:

"جوزيفين!.. لقد كان يجب عليك أن تغادري باريس في ٢٤ مايو، ولكنك لم تفعلي.. وحينما تكتبين إلي، فإن خطاباتك القصيرة القليلة لا توحي بأي شعور عميق. يبدو أن حبي لك نزوة طارئة، ويبدو أنك قد انتهيت الآن من اختيار من سيحل مكاني في قلبك.. إنني أتمنى لك السعادة، ولا أقول هذا عن خبث. إن مصيبتي هي أنني لم أعرفك معرفة كافية، ومصيبتك هي أنك قد حكمت عليّ حكمك على سائر الرجال الذين يحيطون بك..!

"لقد كان كل شيء فيك يعجبني.. حتى ذكرى أخطائك، وذكرى هذا الشجار المؤلم الذي سبق زواجنا بخمسة عشر يوماً. ولم يكن المجد يجذبني إلا لأن ذلك يعجبك. وكانت صورتك دائماً مرسومة في قلبي. أما أنت، فقد تركت صورتي ستة أشهر دون أن تطلبي منها نسخة واحدة.. وإذا استمر الحال هكذا، فمعنى هذا أن الحب سيكون من جانب واحد، وهو الدور الذي لا أستطيع أن ألعبه بأي حال من الأحوال..

"آه!.. أيتها القاسية!.. لماذا جعلتني آمل في الشعور لم تكون تبادلينني إياه؟.. ولكن مثل هذا اللوم غير جدير بي، فأنا لم أثق قط بالسعادة.. أن الموت يحوم حولي كل يوم.. فهل تستحق الحياة كل هذا الصخب والضجيج؟!

"وداعاً يا جوزيفين.. وامكثي في باريس، ولا تكتبي إلي.. وكل ما طلبه منك أن تحترمي عزلتي على الأقل.."!

وفي نفس اليوم الذي كتب فيه هذا الخطاب، كتب إلى بارا يقول:

"إنني في حالة يأس بالغ، فزوجتي لا تأتي إلي هنا. ولا شك أن ثمة عشيقاً يحتجزها في باريس".

وكان خطأ نابليون، أنه استعمل كلمة "عشيق" في المفرد، إذ الواقع أنه كان هناك غير عشيق واحد، ولكن عاشقاً بعينه كان يتفوق على العشاق الآخرين، يدعى: "شارل هيبوليت"!

كان هيبوليت هذا رجل أعمال محنك، وكانت جوزيفين قد اشتركت معه في صفقات مالية وغرامية..

وفي ١٤ يونيو، عاد نابليون يكتب إلى زوجته طالباً الصفح!.. إنه يريد أن يهرع بنفسه إليها.. فماذا يهمه من أمر جيش ومهمته الرسمية؟.. إنه يطلب منها أن تتوسط له لدى "بارا" كي يعطيه إذناً بالحضور إلى باريس:

"إنني في حاجة – أولاً – إلى أن تصفحي عني بسبب هذه الخطابات غير المعقولة التي كتبتها إليك.. وإذا كنت بصحة جيدة، فستدركين أن الحب المشتعل هو الذي جعلني أضل الطريق.. إنني في حاجة إلى أن أقتنع تماماً بأنك لست في خطر.. ضحى بكل شيء من أجل صحتك وراحتك أيتها الصديقة الطيبة.. إنك رقيقة وضعيفة، ولا يمكنك احتمال هذا السفر الشاق الطويل..

"أتوسل إليك ألا تعرضي حياتك الغالية للخطر.. آه! إنني أرتعد يا صديقتي ولا أجرؤ على النظر إلى المستقبل.. إنك إذا مت سأموت بدوري ميتة اليأس والعدم، فأنا لا أعتقد في خلود الروح..!

"إن مورا يحاول إقناعي بأن مرضك بسيط.. ولكنك لا تكتبين إلي منذ شهر، ولذا تجدينني في أشد حالات القلق. وإذا لم تتماثلي للشفاء سريعاً، فاحصلي على تصريح كي أحضر لأراك ولو ساعة واحدة. ويمكنني أن أكون في باريس في خلال خمسة أيام.. إنني هنا – بدونك – لا يمكن أن أكون مواطناً نافعاً. فليحب المجد من يشاء، وليخدم الوطن من يشاء!.. أما أنا، فروحي تختنق في هذا المنفى"

وفي اليوم التالي – الموافق ١٥ يونيو – أرسل إليها نابليون رسولاً خاصاً أمره بألا يمكث في باريس أكثر من أربع ساعات.. وحمل الرسول معه هذا الخطاب:

"أبعث إليك بهذا الرسول الذي لن يبقى في باريس سوى أربع ساعات؛ فاكتبي إلى رسالة من عشر صفحات، فهذا وحده يمكن أن يواسيني..

"إنك مريضة وحامل، وأنت تحبينني أنا الذي سببت لك الحزن بكلامي. إنني مخطئ في حقك، ولا أعرف كيف أكفر عن خطئي.. آه!.. كم أنا خجول لذلك!.. اغفري لي يا صديقتي الطيبة.. لقد اتهمتك بأنك تريدين البقاء في باريس بينما أنت ترقدين على فراش المرض.. إن الحب وحده هو الذي انتزع مني عقلي، ولن أستطيع أن ألم شتاته مرة

أخرى.. والآن، يكفيني أن أراك وأن أضمك إلى صدري ساعتين ثم نموت معاً!..

"لقد كنت دائماً سعيداً، ولم يقاوم القدر إرادتي أبداً، وهأنذا اليوم أصبح منكوباً في الشخص الوحيد الذي يهمني!..

"جوزيفين يا حبيبتي.. كيف استطعت أن تظلي كل هذا الوقت دون أن تكتبي إلي.. إن آخر خطاب وصلني منك مؤرخ في الثالث من الشهر الجاري. ولا أزال احتفظ به في جيبي على الرغم من أنه أثار أحزاني.. ترى، هل استمعت إلى بعض الأصدقاء الخبثاء الذين يريدون أن تبقي بعيدة عني؟.. لقد أصبحت أشك في كل إنسان، وأحقد على كل من يحيطون بك..

"إنني لا أجرؤ على أن أطلب منك أن تشرعي في القيام بسفر طويل إلا إذا كنت في حالة تسمح بذلك، وإذا قررت أن تأتي، فليكن سفرك على مرحل قصيرة، ولكن أكتبي إلي تباعاً كل يوم..

"إن كل أفكاري مركزة فيك، وأنت ترقدين هكذا على فراش المرض.. إنني بلا شهية للطعام، ولا أشعر بحاجة إلى النوم، ولم أعد أهتم بالمجد أو الوطن أو الصداقة؛ فالحياة بدونك هي العدم تماماً.. إنني لا أتمسك بالشرف إلا لأنك تتمسكين به، ولا بالنصر إلا لأنه يدخل عليك السرور.. وإلا لكنت تركت كل شيء وجئت لأرتمي تحت قدميك منذ وقت طويل..

"وأحياناً أقول لنفسي: أنك تزعج نفسك أكثر مما ينبغي، فلا بد أنها شفيت وتستعد الآن للسفر.. بل ربما تكون قد وصلت إلى مدينة

ليون!.. ولكن يا للخيال الذي لا طائل من ورائه!.. إنك لا شك راقدة في سريرك تتألمين.. وفي وسعي أن أتخيلك بوجهك الرقيق الشاحب، وعينيك الحالمتين اللتين زادهما المرض سحراً وجاذبية.

"جوزيفين يا وحيدتي.. متى ستشفين؟.. إنه إذا لم يكن هناك مناص من أن يصاب أحدنا بالمرض، فإني أولى بذلك، لأن في وسعي أن أتحمل المرض بسهولة أكثر، ولكن القدر القاسي شاء أن يصيبني إصابة بالغة في شخصك..

"وداعاً يا حبيبتي.. وإليك قبلة مني على شفتيك، وأخرى على قلبك. ومن يدري، فلعلك الآن قد غادرت مدينة ليون قاصدة إيطاليا، وحينئذ سأسافر إلى ميلانو كي أنتظرك هناك.. يا له من حلم رائع جميل!".

وأخيراً، قررت جوزيفين أن تذهب إليه، فغادرت باريس في الرابع والعشرين من يونيو بعد أن أدخلها بارا في العربة بالقوة، وكان يركب إلى جوارها عشيقها "شارل هيبوليت" الذي أخذته معها كي "يواسيها".. وكانت حالتها أشبه بشخص يساق إلى العذاب سوقاً!

وتقابل بونابرت وجوزيفين في مدينة ميلانو.. وكان بونابرت مشغولاً للغاية، فلم يجد الوقت لكي ينفرد بزوجته إلا أثناء استراحة بين معركتين، أو خلال فترة من الفترات التي كان يتركها فيها شارل هيبوليت.

وخلال الأسبوعين الأخيرين من شهر يوليو، كاد نابليون أن يكتشف أمر شارل هذا.. فقد كان هذا الشاب جريئاً أكثر من اللازم،

وكانت جوزيفين قد أوصت زوجها به في حرارة.. ولما استولى عليه القلق، كتب يقول لها من ميدان القتال:

"يؤكد لي البعض أنك تعرفين هذا السيد الذي أوصيتني بأمره معرفة وثيقة، ومنذ زمن طويل.. وإن صح ذلك، فإنك تكونين وحشاً ضارياً يا جوزيفين..".

ولكن جوزيفين طمأنت زوجها، فتلاشت ظنونه في الحال، واستمر العاشقان يمارسان حبهما من وراء ظهر الثائر!!!...

أما الخطابات، التي كتبها نابليون إلى زوجته – أثناء تنقلاته – في الفترة ما بين عام ١٧٩٦، ١٧٩٧، فلكها تنم عن نفس هذه العاطفة الحسية الملتهبة.. وكان الذين يترددون على صالون مدام بونابرت في إيطاليا يلاحظون – في وضوح – مدى اندفاع بونابرت في تيار هذه العاطفة، فقد كان القائد لا يجد أي حرج في احتضان زوجته أمام الناس، أو وضع يده على صدرها..

وكان جوزيفين تعلن للجميع أنها تتعذب في إيطاليا عذاب الشهداء، وتتحرق شوقاً للرجوع إلى باريس، ولأصدقائها في لوكسمبورج؛ فهي لم تكن تكترث لمجد زوجها، في قليل أو كثير، وإنما كان كل اهتمامها موجهاً إلى عشيقها هيبوليت، برغم ما نالته من ثراء أغدقه عليها زوجها؛ فقد حصلت على عشر نصيب القواد من الغنائم على الأقل.

وقصارى القول، إن عاطفة بونابرت كانت أشبه بآلة موسيقية يعرف عليها وحده.. ومن المؤسف أنه كان مخدوعاً بهذه الموسيقى!!

وفي ربيع عام ١٧٩٨، كف نابليون عن العزف؛ فقد عاد وحده إلى باريس ماراً بمدينة راستادت حيث كانت تقيم جوزيفين في البيت الذي أعده لها هناك..

ولما لم يجدها، عاد إلى باريس وظل بها شهراً ينتظر وصول زوجته التي كانت مستغرقة في اللهو مع حبيبها هيبوليت.. ووصلت جوزيفين آخر الآمر.. فما الذي حدث بينهما؟

لقد انتشرت الشائعات حول الزوجين.. وكانت جوزيفين حينذاك قد بلغت الأربعين من عمرها، بينما كان بونابرت لا يزال في الثامنة والعشرين. وربما كان نابليون يشك في أمر هذه الشائعات التي كانت تدور حول زوجته، ولكن الشيء المؤكد أن الشقاق والشجار كانا قد دبا في حياتهما الزوجية. وقد حدث بينهما شجار عنيف ذات مرة في منزلهما بشارع شانترين، حين وجد نابليون "فاتورة" بثلاثين مليوناً من الفرنكات يجب تسديدها في الحال؛ فقد كانت جوزيفين مسرفة إلى أقصى حدود الإسراف..

أما أعنف شجار بينهما فقد وقع في شهر مارس من عام ١٧٩٨، فقد علم بونابرت – عن طريق أخيه جوزيف – بأن جوزيفين تذهب كل يوم لزيارة شارل هيبوليت في منزل بضاحية سانت أونريه.. وقالت له جوزيفين خلال المناقشة الحادة التي دارت بينهما: "إذا كنت تريد الطلاق فلم لا تتكلم؟". وأخبرته أيضاً بأنه ليس في حاجة إلى استخدام كل هذه الوسائل في التحقيق والرقابة، وبأنها "أسوأ النساء حظاً وأكثرهن شقاءً"!

وكتبت تحدث عشيقها بعد ذلك عن زوجها وأخيه، قالت:

"نعم يا حبيبي شارل.. إنني أحقد عليهما كل الحقد، وأنت وحدك من أهبه حبي وحناني.. ولا شك أنهما يلمسان كيف أمقتهما بسبب الحالة الرهيبة التي يضعانني فيها منذ عدة أيام.. إنهما مسروران لحرماني من رؤيتك كثيراً كما أحب!..

"هيبوليت يا حبيبي الوحيد.. إنني سأقتل نفسي.. نعم، فأنا أريد أن أنهي حياة ستكون من الآن شديدة الوطأة على كاهلي ما دمت لا أستطيع أن أكرسها كلها لك..

"وا أسفاه!.. ما الذي فعلت إذن لهذين الوحشين الضاريين؟ ولكنني لن أكون قط ضحية لهما مهما فعلا بي.. إن آخر رمق في حياتي ستكون لك أنت يا حبيبي. إنني سأفعل أي شيء في الدنيا كي أقابلك اليوم.. وداعاً يا شارل، وإليك أبعث ألف قبلة ملتهبة مثل حبي".

وفي الأيام التالية، نجدها تتحدث مع شارل عن "عذابها الدائم" الذي تلاقيه – وهي إلى جوار زوجها في شارع شانترين – فتكتب إلى هيبوليت قائلة:

"أنت وحدك تستطيع أن ترد إليَّ سعادتي.. قُل أنك تحبني ولا تحب سواي، فحينئذ سأكون أسعد امرأة على وجه الأرض"!...

* * *

وفي شهر مايو، غادر نابليون باريس متجهاً إلى قاعدة طولون البحرية، ومنها ركب البحر متجهاً إلى مصر، ويبدو أن حلاً وسطاً قد تم

بين الزوجين، ذلك أن جوزيفين ذهبت لتودعه حتى الميناء، ثم عادت من طولون إلى مدينة بلومبير، ومنها إلى بيتها الصغير في باريس..

وأقامت جوزيفين بعد ذلك مع شارل هيبوليت في قصر ريفي صغير اكتسب شهرة تاريخية، وهو قصر "لامالميزون"!..

وفي مصر، علم بونابرت بتفاصيل أخرى عن علاقة زوجته بشارل هيبوليت فضرب رأسه بيده عدة مرات وصاح يقول في غضب جنوني:

"النساء!.. جوزيفين!.. جوزيفين: هل تخونينني هكذا وأنا على مسيرة ٢٤٠٠ كيلومتر من فرنسا؟!.. جوزيفين!.. النساء!.. الويل لهن! إنني سأقضي على هذا الصنف من الرقيعات!.. أما هي فإنه الطلاق!".

وكان أوجين ابن جوزيفين مع بونابرت في مصر، فكتب إلى والدته بكل ما عرف من أخبار عن غضب القائد لمغامرات زوجته. وكانت جوزيفين تأمل ألا يرجع نابليون حياً من أفريقيا. وذات مساء، انتشرت شائعة في قصر لوكسمبورج بأن نابليون قتل في مصر، وتظاهرت الزوجة بالإغماء، فأخرج بارا كل الخدم ما عدا الطبيب دوفور. وما أن خلت الغرفة، حتى التفتت جوزيفين تسأل "بارا" وهي تبتسم:

– هل أنت واثق تماماً من أنهم اغتالوه هناك؟!

فأجابها بارا قائلاً:

– اعتقد ذلك.. إن من بعث إليّ بالخبر ليست له أي مصلحة في الكذب

فقالت، وقد أشرق وجهها:

– آه!.. إنني أتنفس الصعداء يا صديقي!.. إن هذا الرجل لم يكن يحب إلا نفسه.. إنه أكثر أهل الأرض قسوة وشراسة وأنانية، ولم يعرف قط غير مصلحته وطموحه!

واستمرت جوزيفين تتحدث عن ذلك بضع دقائق، ثم عادت تكرر سؤالها من جديد قائلة:

– آه!.. أحقًا أنه مات؟

فقال بارا:

– أعتقد ذلك..

– حسناً!.. ها قد نقص عدد الأشرار في العالم واحداً!.. إنك لا تستطيع أن تتصور مدى فظاعة هذا الرجل الذي لم يكن يحلم إلا بالقسوة!.. لقد كان دائماً يدبر المكائد والمقالب للآخرين.. وكان لا يهدأ له بال حتى يرى الجميع يتعذبون من حوله!

ولكن بونابرت لم يكن قد مات.. لقد كان فقط يريد أن يصرف عن نفسه غضب الناس ونظرتهم إليه كزوج سخرت منه زوجته!

غرام نابليون أثناء زواجه بجوزيفين

مغامرة في القاهرة

اصطحب نابليون في حملته على مصر فرقة من علماء التاريخ والرياضة والآثار والطبيعة، ولفيفاً من الأدباء والصحفيين، وكان غرضه من ذلك أن يضفي على الحملة عظمة وبريقاً غير عاديين، لينافس بها ركب شوازي جوفييه الذي أرسل ليكون سفيراً لفرنسا في روسيا. وكان من بين من اصطحبهم أيضاً قائد مغامر عملاق يدعى إسكندر دارجيفال، عرفه نابليون أثناء الدراسة في كلية بربيه العسكرية..

كان دارجيفال هذا يعمل فيما مضى ضابطاً في حرس الملك لويس السادس عشر الخاص، وكان الناس يلقبونه بـ "الرجل ذي القامة الطويلة"، وكان قد خاض غمار بعض المغامرات في بولندا قبل الثورة الفرنسية. وكان غرض هذا الرجل من الرحيل إلى القاهرة أن ينفذ مشروعاً كان يحلم به، عبارة عن علبة ليل، ونادٍ خاص للتعارف..

وأبحرت مع الحملة أيضاً مجموعة من الفتيات الجميلات اللاتي كن ينتظرن الربح من ورائها، شأنهن في ذلك شأن دارجيفال.. وكذلك كانت هناك بعض فتيات من نوع آخر لا ينظرن إلى الربح، وإنما كن يتبعن أزواجهن أو عشاقهن، وتنكرن من أجل ذلك في أزياء الرجال. ومن بين هؤلاء الأخيرات، نجد في القاهرة – في عام ١٧٩٨ – فتاة رائعة الجمال من مواليد مدينة كاركاسون اتخذت لنفسها اسماً مستعاراً هو بيليلوت..

كانت بيليلوت على قسط وافر من الرقة والجاذبية، وكان الجميع يرمقونها في إعجاب كبير بسبب عينيها الزرقاوين الواسعتين، وحاجبيها السوداوين، وشعرها الأشقر الطويل الذي كان يكاد يغطي كل جسمها.

وكانت بيليلوت فتاة عاطفية محبة للهوى والغرام، من ذلك النوع الذي يحبه بونابرت بصفة خاصة، والذي كان يتصل به بفضل واحد من رجاله المخلصين، هو الوزير سان جان دانجيلي، أكبر رجل محنك في هذه الأمور في عهد الإمبراطورية الأولى. وقبل حملة بونابرت على مصر، كانت بيليلوت تعمل صانعة للقبعات بمتجر مدام فوريس في مدينة كاركاسون، وكان اسمها الأصلي: "مارجريت بولين". وفي ذلك الوقت، كان الكثيرون يطلبون يدها، ولكنها رفضتهم جميعاً، في انتظار فارس الأحلام. وفجأة، ظهر أمامها هذا الفارس في شخص جون نويل فوريس، الضابط بفرقة فرسان الحرس، وكان يمت بصلة القرابة لمدام فوريس، التي كانت بيليلوت تعمل عندها. ولم يكن جون فوريس هذا شاباً وسيماً، ولكن فتنها فيه زيه العسكري الأنيق، فلم تستطع أن تتردد في قبوله زوجاً لها..

وعقد زواجهما على عجل، وعرفت بيليلوت على يدي زوجها ملذات الحب، واكتشفت في نفسها مواهب عديدة في هذا المضمار.. وكانا كزوجين شابين لا يفكران إلا في الاستمتاع بأكبر قدر من اللذة، ولكن ساعة الفراق دقت بأسرع مما كانا يتخيلان. ووقع الاختيار على الملازم الثاني جون نويل فوريس للسفر مع كتيبته في حملة نابليون على

مصر. ولما حان موعد السفر انهارت أعصاب الزوجة الصغيرة ولم تقو على فراق زوجها، فصممت على أن تصحبه إلى كل مكان يذهب إليه. وفي ميناء مارسيليا – وبفضل تواطؤ الزملاء – تنكرت بيليلوت في زي ضابط بفرقة الفرسان، وأبحرت مع زوجها سراً على ظهر ناقلة الجنود لالوسيت. وانضمت ناقلة الجنود هذه إلى بقية قطع الأسطول التي كانت تنتظر في قاعدة طولون، ثم عبرت الحملة البحر، وأخيراً وضعت بيليلوت قدمها على أرض مصر..

* * *

وفي مصر بدأت الصدمة، فقد أصيبت بيليلوت بخيبة أمل كبيرة – مثلها في ذلك مثل جميع الضباط والجنود اللذين كان نابليون قد وعدهم بالثراء العاجل السهل – إذ لم يظفروا بغنائم مثل التي ظفروا بها في إيطاليا، فضلاً عن أن الجو فيها كان صعباً للغاية، ولكن بيليلوت كانت لا تزال تعتبر نفسها سعيدة الحظ لأنها لم تفارق زوجها..

ولما اكتشف أمرها، لم يكن في الوسع إلقاء الزوجة الشبقة في عرض البحر أو إعادتها إلى فرنسا، ومن ثم فقط اضطروا إلى قبول وجودها في القاهرة، وسرعان ما أصبح الجيش كله يعرف قصتها، ومن هنا، كانت بداية الخطر الذي هدد سعادة هذين الزوجين!..

كان عدد النساء الأوروبيات في القاهرة قليلاً جداً، فاضطر الضباط والجنود إلى قبول نساء من رقيق المماليك، وكانوا قد خلفوا وراءهم بعد هزيمتهم أقبح من كان لديهم من نساء في الحريم. وما أن وقعت الأبصار على بيليلوت الصغيرة الشقراء حتى طمع فيها الجميع؛

فقد كانت بقامتها الجميلة، وأسنانها اللؤلؤية، وبشرتها النادرة، موضع إغراء كبير بالنسبة للجميع..

ولكن إذا كان الجميع يمنون النفس بالحصول على بيليلوت لأنفسهم، فقد كان هناك رجل آخر يتفحصها من أجل أغراض أخرى.. ولم يكن هذا الرجل غير إسكندر دارجيفال مؤسس "ملهى تيفولي" بالقاهرة. وكان دارجيفال يريد لمشروعه أن يبدأ بداية طنانة، ولذا كان يلزمه عرض أشياء أخرى غير موائد القمار والأطعمة الفاخرة، كي يجذب إليه ذوي الرتب الكبيرة والمرتبات الضخمة في الجيش، ولم تكن هذه الأشياء الأخرى – بالطبع – غير عدد من النساء الجميلات يزين به صالوناته وحديقته الخاصة..

واستطاع دارجيفال أخيراً أن يتصيد امرأة يونانية تدعى هيلين، كانت فيما مضى تابعة لحريم أحد البكوات المماليك.. وكان مركز هذه المرأة الممتاز يتيح لها أن تتصيد بدورها فتيات أخريات يستمتعن بقدر معقول من الجمال، ولكن أهم ما فعلته، هو أنها استطاعت أن تحصل لدارجيفال على وعد من زوج بيليلوت بأن تكون زوجته ضيفة شرف في ليلة افتتاح ملهى تيفولي، وذلك مع بقية النساء الجميلات اللاتي جمعهن دارجيفال خصيصاً لهذه المناسبة.

إذن فقد وافقت المواطنة اللطيفة – زوجة الملازم فوريس – على قبول هذه الدعوة على أمل أن تعود عليها بشيء من الشهرة والظهور.. لقد قبلتها على الفور دون تبصر أخلاقي من جانبها.. ولكننا نضيف، إنصافاً للحقيقة، أنها كانت تجهل الهدف الذي كان يرمي إليه

دارجيفال من وراء ألاعيبه القذرة. ولم يكن هذا الهدف بخاف على ذوي الخبرة والتجربة من رجال الجيش، فقد كان "الرجل ذو القامة الطويلة" يريد أن يكسب لنفسه أكبر قدر ممكن من عطف بونابرت ورجال قيادته العليا، بأن يمدهم بمواطنات إباحيات، وكان الحرمان الذي يعيش فيه هؤلاء يمثل بالنسبة لذلك الرجل فرصته الذهبية الكبرى!

وكان تقديره للمسألة صحيحاً، إذ سرعان ما زاد عدد عملائه، وربح دارجيفال مالاً كثيراً على الرغم من المحاولات الكثيرة لمقاومة جشعه.

وفي الليلة الأولى من ديسمبر عام ١٧٩٨، تألقت بيليلوت بين نجوم ملهى تيفولي، ودفع بها دارجيفال أمام نابليون الذي أعجب بجمالها فأخذ يوجه إليها نظرات ذات مغزى. وابتعد عنها بونابرت بعد أن أسمعها بعض عبارات الإطراء، ثم عاد إليها من جديد وبدأ يغازلها صراحة.. وأتاح لهما دارجيفال أن يتنزها معاً في أحد الممرات المظلمة في حديثة ملهى تيفولي، ومنع الدخول إلى هذا الممر باستثناء جونو ضابط أركان حرب نابليون المفضل..

ولما عاد كل من نابليون وبيليلوت للانضمام للحفل، لم تعد الزوجة تحب زوجها كثيراً مثلما كانت تفعل من قبل، واعتبرت نفسها – منذ هذه اللحظة – ملكاً للقائد العام!..

وأراد نابليون أن تكون بيليلوت – منذ ذلك الحين – له فحسب، فأصدر أمره لأركان حربه برنييه بإبعاد الزوج. وكان لا بد من أن يختفي فوريس من مصر، فأعدوا سفينة مسلحة صغيرة تحمل "رسالة"

مهمة يجب تسليمها لحكومة الإدارة في باريس، وصدر الأمر للملازم فوريس بالإبحار على سطح هذه الباخرة، وكانوا يقدرون أنها ستقع في أيدي الإنجليز لا محالة، فينتهي الأمر بأسر قبطانها أو إغراقه في البحر، وهكذا لا يظهر الملازم فوريس في القاهرة بعد ذلك قط..

وقبل فوريس القيام بهذه المهمة بشرط أن تصحبه زوجته، فكل منهما يحب الآخر.. وإذا كان هناك خطر ما، فإنهما سيواجهانه معاً أو يموتان معاً. وصاح برتييه محتجاً بأنه لا يمكن اصطحاب سيدة في مهمة خطيرة كهذه، فتردد فوريس ثم أعلن أنه لا يريد الذهاب. وحاول أن يستدر عطف رئيس هيئة أركان الحرب، ولكن برتييه أصر على أمره بالذهاب. إن الأوامر هي الأوامر.. وبما أن فوريس جندي، فليس عليه سوى الطاعة. ولكن متى يرحل؟ على الفور.. إن بونابرت يريد أن تتم المهمة في أسرع وقت ممكن!!

ولقد كان بونابرت متلهفاً لدرجة أنه وجه ودعوة للعشاء إلى المواطنة بيليلوت فوريس وبعض الأشخاص الآخرين في نفس المساء الذي كان سيرحل فيه زوجها. وعلى المائدة، أقدم نابليون على حركة مكشوفة، إذ قلب دورقاً صغيراً مملوءاً بالماء على ثوب جارته، ثم نهض واصطحبها معه إلى الغرفة المجاورة لتجفيف هذا الثوب وتنظيفه..

ولما عاد نابليون – ومعه بيليلوت بعد فترة من الوقت – ضج الحاضرون بالضحك والتصفيق، فقد كان وجهاهما مضرجين بالحمرة، وكان شعر هذه الحسناء الصغيرة في حالة "فوضى" جميلة.. لقد كان

الأمر من الوضوح بحيث فهم كل واحد ما حدث.. وهنأ الحاضرون العاشقين!

* * *

وفي اليوم التالي، أمر نابليون بتأثيث بيت فاخر بالقرب من قصره لتسكن فيه "فريسته" الجميلة... وسار قدماً في مغامرته دون أن يخطر بباله حدوث أي عائق.. أو ليس هو السيد؟.. أليست بيليلوت – التي لقبها ببولين – ستكون خاضعة على الأقل للحجاب في الحريم؟

ولم تعد بولين تتنزه إلا مع نابليون في عربته؛ فبهذه الوسيلة العلنية لن يجرؤ أحد على اختطافها منه أو حتى أن يقف في طريق هذه العلاقة. ومع ذلك، كان هناك شخص واحد يجرؤ على أن يفعل ذلك.. إنه الزوج..

والذي حدث، أن فوريس لم يمت ولم تغرق سفينته، وإنما أسره الإنجليز.. وكان هذا متوقعاً وطبيعياً، فقد كان الإنجليز يرصدون تحركات الفرنسيين في مصر.. إنهم لم يكونوا يجهلون شيئاً عن حياة رجال القيادة العامة الفرنسية في القاهرة، وعن حياة القائد العام بالذات.. ولو فرضنا أنهم كانوا يجهلون ذلك، فإن استجواب فوريس وحده كان كفيلاً بأن يطلعهم على كل شيئ.. وقصارى القول أنهم وجدوا أمامهم رجلاً كاد يذهب ضحية لفجور قائده.. فماذا سيفعلون به؟.. إن من الممكن نفيه إلى إحدى الجزر، ولكن فوريس في حد ذاته لا قيمة له بالنسبة لهم.. أو ليس من الأفضل إذن إصابة بونابرت نفسه في الصميم؟.. فماذا لو أعادوا إلى مصر زوج عشيقته؟ ألا يكون هذا خير حل للموقف؟!

وهكذا اتجهت إلى مصر سفينة بريطانية تحمل على ظهرها الملازم جون نويل فوريس.. وأنزل الضابط في مصر، وحاول الفرنسيون حجزه في الإسكندرية دون جدوى، فقد كان يريد أن يصل إلى القاهرة – في أسرع وقت ممكن – ليرى زوجته.

ولكن فوريس واجه أسوأ موقف صادفه في حياته.. إنه ثار بالطبع، ولكن ما الفائدة؟.. لقد ثار نابليون أكثر منه؛ فمن يخدم العلم لا يتشاجر مع قائده من أجل زوجته! ولما كان بونابرت هو الأقوى، فقد اضطر فوريس أن يحني رأسه. ولم يكتف نابليون بذلك، وإنما أمر بأن تطلق بولين من زوجها، كي يطمئن إلى أن هذا الملازم لن يأخذ منه عشيقته!

إذن فقد انتهى الأمر بهزيمة فوريس.. وها هو ذا بونابرت يعود إلى التنزه مع بولين تحت سمع فوريس وبصره.. وأطلق الجيش على بولين لقب "كليوباترا القائد العام"!

* * *

وعاشت بولين عيشة الأميرات.. وبلغت الجرأة ببونابرت أن عين أوجين – ابن زوجته جوزيفين – فارساً مرافقاً له في ركب عشيقته، وكان أوجين ضابطاً في الحملة. واعتبر أوجين علاقة والدته بنابليون في حكم المنتهية، ولاسيما أنه كان قد سمع من بونابرت هذا التصريح العنيف: "إنني أريد الطلاق من جوزيفين.. وسوف أكتب تواً إلى شقيقي جوزيف لاتخاذ اللازم نحو إجراء طلاق علني".. وكان بونابرت يعتزم الطلاق حقاً لدرجة أنه وعد بولين بأن يتزوجها إذا حملت منه!

ولكن جهود فتى كورسيكا وفتاة بلدة كاركاسون لم تكلل – للأسف – بالنجاح. وكثيراً ما كانت بولين تحتج قائلة: "إنه ليس عيبي على أية حال". ومنذ ذلك الحين – وهذا أمر بالغ الأهمية – بدأ يتكون في نفس نابليون اعتقاد بأنه عاجز عن إنجاب ذرية.

* * *

قطعت حملة سوريا هذه القصة الغرامية العجيبة؛ ففي اليوم العاشر من فبراير عام ١٧٩٩، غادر نابليون القاهرة بعد حب دام أكثر من شهرين. ولم يعد إلى عشيقته إلا في الرابع عشر من شهر يونيو. وبعد غرام دام مدة شهرين آخرين، غادر نابليون مصر إلى الأبد تاركاً جيشه وبولين.

والواقع أنه كان معذوراً في عدم اصطحابه لبولين، فقد كانت رحلته محفوفة بالمخاطر؛ إذ كان من الممكن أن تقع سفينته الحربية في أيدي الإنجليز. فيا للفضيحة التي كانت ستحدث حينذاك فيما لو أسر القائد الفرنسي العام ومعه عشيقته التي اختطفها عنوة من ضابط شاب في الجيش الفرنسي!

واجتهد كليبر خليفة بونابرت في تهدئة حزن بولين وغضبها، ولما أصرت على أن تلحق بعشيقها في فرنسا، حقق لها رغبتها.. بل ويبدو أنه نصحها بالسفر إلى هناك. وكتب كليبر إلى الجنرال مينو كي يسهل مسألة إبحارها قائلاً: "إن المواطنة فوريس هي التي تحمل هذا الخطاب إليكم يا سيدي الجنرال.. إنها تريد العودة إلى فرنسا لتلحق بالبطل الذي فقدته. وهي تتوقع من كرمكم وعطفكم أن يتاح لها السفر في أسرع

وقت ممكن، ومع صحبة طيبة.. وهي لا شك تعرف كيف ترجوكم في هذا أحسن مني".

ولم يرفض مينو تحقيق رغبتها، ولكنه كان حذراً، إذ أجاب على كليبر قائلاً: "لقد حضرت عندي هذه السيدة الجميلة يا سيادة القائد العزيز. ولكنني لم أرها، وسوف أؤدي لها – بغير أن أراها – كل ما أستطيع بذله لها من خدمات، ما دام زوجها لن يتدخل في شيء. وقد جربت منذ زمن طويل أن تدخل المرء في مثل هذه الأمور لا يعود عليه بأي خير.. وكن على ثقة من أنه[٦] يتحدث عنه في فرنسا. وهذا الرجل له أعداء كثيرون، ولابد أن أحدهم سيخطب لمدة ساعتين على الأقل في الجمعية التشريعية بخصوص هذه المغامرة الغرامية. ومن هنا يمكن أن تدرك كل ما يمكن أن يقال هناك في مثل هذا الموضوع! وأتوقع أننا لابد أن نواجه – نحن المساكين – مأزقاً شديداً، إذا ما تدخلنا في معركة كهذه".

ومع ذلك، عين مينو أركان حرب نابليون المخلص جونو ليرافق بولين في رحلتها إلى فرنسا. وفي الطريق، احتجز الإنجليز جونو، وأذنوا لبولين باستئناف الرحلة..

وفي باريس، كانت تنتظرها صدمة قاسية؛ فقد تصالح نابليون مع زوجته لأنها كانت بالنسبة له تمثل "سنداً" في هذا الوقت الذي بدأ يصل فيه إلى السلطة، ومن ثم فقد رفض مقابلة بولين..

---

(٦) يعني نابوليون.

وكانت أحداث انقلاب ١٩ نوفمبر ١٧٩٩ لا تزال قريبة العهد، وكان نابليون حينئذ يرتب أمر "الحكومة القنصلية"، ويجرد القنصلين الآخرين اللذين يحكمان معه من اختصاصاتهما، ويأتي بمن سيحل محلهما. لقد كان منهكماً تماماً في أمور السياسة والإدارة والمال، وأيضاً في الإشراف على الجيش الذي كان يجهزه لمعركة مارنجو المقبلة.. ولأن مركزه لم يكن مضموناً، فإنه لم يشأ أن يزعزعه بالعودة إلى علاقة نسائية قد تثير عليه عداء الرأي العام، ولذا أبعد بولين عن حياته بغير رقة أو شفقة!

ولكنها كانت من المكر بحيث حاولت أن تنتقم منه بالذهاب إلى نفس المسارح التي يتردد عليها، ولم يدم هذا طويلاً، إذ سرعان ما صدر الأمر بنفيها من باريس، ولكنها لم تأبه لذلك..

وبعد نفيها من باريس، ظهر في المدينة رجل لم يكن مرغوباً فيه على الإطلاق، ذلك هو زوجها السابق نويل فوريس. فقد كان متمسكاً بالمرأة التي اختطفها منه نابليون.. أما من ناحيتها، فإنها لم تجرؤ بالطبع على العودة إلى حياة سوف تجعلها ذكرى الخطيئة كابوساً مرهقاً. ولكن فوريس صمد وقام بدعاية كبيرة حول مصيبته، وكان يقص على كل من يصادفه كيف ألقى به بونابرت بين براثن الموت في أيدي الإنجليز. وكان الناس يتحدثون عن هذه الفضيحة في المقاهي.. ولم تلبث الصحافة أن تناولت مغامرة القائد في جرأة وإسهاب!

وغضب القنصل بونابرت، وأمر فوشيه وزير الشرطة بأن يبذل كل جهد ممكن لتكميم أفواه الصحف.. إنه لا يريد أن يستعيد فوريس هذه

المرأة. ليس هذا فحسب، وإنما يجب إلقاء القبض على فوريس، وبالفعل ألقي القبض على الزوج وحددت إقامته ووضح تحت المراقبة عدة مرات عديدة!

وكرر بونابرت أوامره بأن تنفى بولين إلى الريف كي ينساها الناس، فبعثوا بها لتعيش في منزل جميل بمدينة بيل فيل، وكان هذا من كرم عشيقها السابق. ولكنها لم تكن مدينة له على أية حال بهذا الزوج الجديد الذي تزوجت منه في أواخر عام ١٨٠١، والذي كان يدعى هنري دي رانشو!

* * *

وانقضت عشر سنوات دون أن تستطيع بولين أن تتبادل كلمة واحدة مع الرجل الذي كان يعشقها في القاهرة، وكانت تحاول أن تفاجئه أحياناً بالظهور في بعض الحفلات التنكرية التي يحضرها، وكانت تكتب إليه أيضاً، ولكنه كان لا يرد عليها أبداً. وذات مرة، صارحت الماريشال دوروك – كاتم أسرار نابليون – بألوان القلق والمتاعب التي تواجهها في حياتها. وتحدث دوروك عنها مع سيده، وحينئذ منح نابليون عشيقته السابقة ثمانية عشر مليوناً من الفرنكات، ولكنه لم يأمر بتبليغها بكلمة أو عبارة واحدة. وابتلعت بولين الإهانة والمال، ولكنها أصبحت منذ ذلك اليوم من ألد أعداء نابليون بونابرت..!

وظلت بولين ترتكب الخطيئة التي دربها عليها نابليون، وأصبح لها طابور من العشاق المعروفين، وكانت تنتقيهم جميعاً من رجال الجيش. ولم تصبح بولين لامعة في هذا المضمار فحسب، وإنما حاولت كذلك

أن تحوز شهرة في عالم الأدب والرسم. وفضلت أن يناديها الناس باسمها الأصلي الذي لم تكن قد استعملته قط "مارجريت" ورسمت لنفسها صورة تمثلها وهي واقفة في حديقة صغيرة تقطف وردة صغيرة..

ولم تكتف بولين بذلك، وإنما استقبلت فيما بعد في صالونها الخاص كل رجال السلك السياسي في عهد الإمبراطورية، وأخيراً توفيت في عام ١٨٦٩، أي في نهاية عهد الإمبراطورية الثانية.

وكانت مارجريت تثور كلما ذكر الناس أمامها اسم نابليون بونابرت، وأحرقت جميع الخطابات التي كان قد أرسلها إليها أثناء إقامتها في القاهرة.

مغنية الأوبرا

كان نابليون قد بيت النية على الطلاق من جوزيفين بعد عودته من مصر، ولما وصل إلى باريس عاش بمفرده في بيته الجميل بشارع لافيكتوار؛ فقد كان مصراً على أن يلقن الخائنة درساً لا تنساه..

وزار بارا الجنرال بونابرت في مسكنه، وأخذ يبرهن له على أنه مخطئ في تصرفه ذاك، إذ ليس من الحكمة أن يطلق الرجل زوجته بعد أن يصل إلى مركز كبير. وأوضح له على أنه مخطئ في تصرفه ذاك، إذ ليس من الحكمة أن يطلق الرجل زوجته بعد أن يصل إلى مركز كبير. وأوضح له كيف أن الناس سيلومونه – إن عاجلاً أو آجلاً – إذا أقدم على ذلك. وليس هذا فحسب، بل أن جوزيفين يمكن أن تؤدي له خدمات جليلة نادرة. وقصارى القول، أن بارا الذي زوج نابليون من جوزيفين، هو نفسه الذي أقنعه بألا يطلقها، وبأن يغض النظر عن أخطائها..

وكلنا نعرف قصة غفران نابليون لجوزيفين، بعد أن مهد ابنها أوجين وابنتها هورتانس الجو بين الزوجين بطريقة لبقة ماهرة، وبعد أن توسلا إلى بطل كورسيكا كي يغفر لوالدتهما مغامراتها.. ولم يكن بونابرت يطلب أكثر من أن ينهي هذه المشكلة على نحو فلسفي، ولا شك أنه قد حدث بينهما نوع من الاتفاق الودي قبيل انقلاب بروميير وكانت جوزيفين بالتأكيد هي الجانب المسيطر على الموقف في هذا الاتفاق

المشترك، وإلا فكيف نفسر رعب نابليون من أن تكتشف زوجته أمر خياناته الدائمة، وهي التي خانته قبل أن يخونها، والتي كان ينبغي عليها أن تلوذ بالخضوع والندم لتكفر عن ذنبها؟!

نعم.. لقد كان نابليون يخشى أن تكتشف زوجته أمر عشيقاته، ولذا كان يجتهد في أن يخفي عنها مغامراته الجديدة. وأثناء عودته من مصر، قال لتابعه المملوك رستم وهو على ظهر الباخرة: "لا تخش شيئاً.. إذ سرعان ما نصل إلى باريس، ونجد كثيراً من المال والنساء الجميلات". وفي جزيرة كورسيكا – أثناء فترة الراحة التي قضاها نابليون هناك – أخذ بعض النسوة الجميلات يدللن رستم، فقال له نابليون على مسمع من برنييه: "ما هذا؟.. يبدو أنك أكثر مهارة منا! فقد ظفرت بإعجاب نساء قبلنا، ولم نظفر نحن برضا واحدة منهن حتى الآن!".

وعندما منحت السلطة لنابليون، وأصبح رئيس دولة، وغدا المال وفيراً لديه، كانت أولى مغامراته الهامة مع مغنية للأوبرا جوزبينا جراسيني..

كان بونابرت يحب سماع الموسيقى والغناء، وكان يدَّعي أنه خبير في هذا الميدان.. الأمر الذي لم يكن يروق للفنانين لأنهم لم يكونوا على اقتناع بذلك، وكان من أشهرهم الموسيقار شيروبين ملحن الأوبرا الشهير في ذلك الوقت، الذي أثار ثائرة نابليون لأنه لم يظهر نحوه الاحترام الكافي!.. وعلى أية حال، فعلاقة نابليون بمغنية الأوبرا جوزبينا جراسيني لم تكن ترتبط بفن الموسيقى..

كانت جوزبينا هي المغنية الأولى في مسرح لاسكالا بميلانو. ولما وصل بونابرت إلى عاصمة إقليم لومبارديا – قبيل معركة مارنجو الشهيرة – ذهب إلى الأوبرا ليسمعها، وأمر بأن تقدم إليه بعد الحفل. وكان ما أمر به؛ فاصطحبها نابليون إلى غرفة نومه. وفي اليوم التالي وجد الجنرال برنييه والسكرتير يوريين، المغنية راقدة في فراش بونابرت!

وصارحت المغنية نابليون بدهشتها لأنه انتظر كل هذه السنين الطويلة ثم أبدى اهتمامه بها، وأضافت تقول له وهي تبتسم: "إنني كنت حينذاك أكثر جمالاً!" وكان جمالها قد بدأ فعلاً في الذبول!

ولكن هذا لا يهم؛ فهي في نظر نابليون امرأة جميلة، فطلب منها أن تنتقل إلى باريس لتستقر فيها، حتى تكون قريبة منه على الدوام.

وعاد بونابرت إلى باريس، وتبعته عشيقته الجديدة إلى هناك، واصطحبت معها بعض زملائها وزميلاتها في الغناء، ولكن هؤلاء لم يكن مثلها ملزمات بالخضوع لرغباته. بل لقد أجاب واحد من المغنيين – يدعى مارشيزي – على بونابرت، حينما طلب منه هذا الأخير أن يغني له لحناً جميلاً، قائلاً: "سيدي الجنرال!.. إذا كنت تريد لحناً جميلاً، فقم بجولة صغيرة في الحديقة، وستجد حينئذ ما تطلب!".

وأصدر نابليون أوامره بأن يعد لجوزبينا مسكن أنيق في باريس، وأن تمنح مرتباً مجزياً. وسرعان ما غمر الذهب، وحالف النجاح، هذه المغنية، وأعطاها الوزراء مكان الصدارة في صالوناتهم حينما عرفوا أنها محظية بونابرت المفضلة في ذلك الحين.. فهل كانت سعيدة بذلك؟ نعم.. لعدة أسابيع فقط، ثم بدأت الأحزان تجد طريقها إلى قلبها،

فنابليون هذا لا يحبها حقاً.. بل إنه يخدعها. فهو يأتي فجأة ليراها، وسرعان ما يتسرب السأم إلى نفسه فيغادرها؛ فهي – في نظره – ليست سوى امرأة تشبع غرائزه ويدفع لها أجرها على هذه الزيارات المفاجئة التي تتم في السر!

وثارت جوزبينا على ذلك الوضع، ووجدت من بين المحيطين بها مواسياً، هو عازف الكمان الشهير رود، فأغرمت به إلى حد الجنون، وأخذت تتحدث عنه إلى صديقاتها بقولها: "آه!.. كم هو رقيق كريم النفس مثلا ملاك!".

وعرفت باريس كلها قصة حبها جوزبينا لـ "رود"، ما عدا بونابرت!

ولما اكتشف نابليون الأمر ذات يوم، هاجم فوشيه وزير الشرطة، ولامه لوما عنيفاً على جهله بالأمور، ولكن هذا صرح له بأنه كان يخفي عنه الحقيقة مراعاة لمشاعره، واستشاط نابليون غضباً حينما سمع هذا الرد، ولكنه حاول أن يخفي ثورته أدار ظهره لفوشيه وأخذ يصفر لحنا إيطاليا..!

وقرر بونابرت أن ينتقم من هذه المرأة التي جرؤت على خيانته علناً، فأمر بأن تمنع جوزبينا من الخروج. وعين حارساً عليها، أحد ضباط أركان حربه.. ولكن جوزبينا اعترضت على هذه المعاملة، فما كان من نابليون إلا أن قطع عنها معونته المالية، فلا مرتب، ولا منح، ولا معاش.. إنه سيعرف كيف يخضعها عن طريق الجوع، ولذا سنراه يطالب أثناء مناقشة قانون نابليون المدني بأن "يخضع الزوج زوجته العاصية بحرمانها من المال الذي تعيش منه".

وعلى أية حال، فقد اهتدت جوزبينا إلى الحل الوحيد الذي يحفظ لها ماء وجهها؛ فبعد عدة حفلات أقامتها للحصول على بعض المال، غادرت باريس في صحبة عشيقها الفنان، دون أن تلين لها قناة أمام رجاء نابليون لها بالبقاء!

وفيما بعد، عادت جوزبينا للغناء في أوبرا باريس، وقابلت نابليون حينذاك في شقته السرية التي كان قد أعدها في قصر التويلرى كي يستقبل فيها خلسة، بعد ظهر كل يوم "النساء اللاتي يأتين في زيارات عابرة"..

وكانت جوزيفين تبدي غيرتها من أولئك النسوة، وتراقب نابليون وتتجسس عليه من مدخل هذه الشقة السرية. والواقع أنه لم يكن هناك مبرر لقلقها ذاك، فإنهن لم يكن يشكلن أي خطر عليها. ومن ناحية أخرى فسوف تبرهن جوزبينا على أنها لم تكن تشعر بالحب أو الإعجاب نحو نابليون – ولا حتى بأي احترام لذكرى غرامها – إذ منحت نفسها بعد ذلك للرجل الذي هزم بونابرت في معركة واترلو: دوق ويلينجتون!

مفاجأة في الليل

في نفس اليوم الذي وقعت فيه معركة مارنجو، نزل في ميناء مارسيليا – عائداً من مصر – أحد زملاء نابليون الأعزاء منذ بداية حياته العسكرية، هو أندوش جونو الشهير..

كان جونو جاويشاً في قاعدة طولون البحرية عام ١٧٩٩ ثم جعل منه بونابرت جنرالاً محلياً لإحدى الفرق العسكرية في عام ١٧٩٩. وبعد عودة قنصل فرنسا الأول من إيطاليا، قام بتثبيت جونو في هذه الرتبة ونصبه حاكماً عسكرياً عاماً على مدينة باريس..

ولم يضع الجنرال الشاب وقتاً، وانطلق على الفور يجري وراء النساء ويشرب الخمر ويلعب القمار، بل كان لا يتورع عن المشاجرة مع خدم المقاهي، كعادته أيام أن كان جاويشاً في الجيش!

وتقدم جونو يطلب يد ابنة الأرملة برمون، وكانت هذه السيدة نفسها قد رفضت في عام ١٧٩٥ أن تتزوج من بونابرت، ولكن لم يعد لديها الآن أي سبب لترفض زواج ابنتها من هذا الرجل الذي يضمن لكل من الأم والفتاة مستقبلاً باهراً..

وفي ٣٠ أكتوبر عام ١٨٠٠، تزوج جونو من لورا برمون، وفتح الطريق أمامها لتعيش حياة شبيهة بحياة بطلات ألف ليلة وليلة. وما الغريب في الأمر ما دامت قد أصبحت زوجة لرجل كان حاكماً عسكرياً

عاماً للعاصمة، ثم سفيراً، ثم قائد، ثم جنرالاً حائزاً على وسام اللجيون دونير، ومن كبار ضباط الإمبراطورية، ويحمل لقب دايرانتيس..

وكانت لورا رائعة الجمال، وقد وصفها أحد زملاء زوجها بقوله: "من المستحيل أن نتصور مخلوقة أجمل منها، أو أكثر رقة وحيوية وجاذبية.. أنها كانت ترتدي ثياباً غاية في الأناقة، وكانت نضرتها تنسجم تماماً مع ما وهبته لها الطبيعة من دلال وجاذبية وقوام بديع التكوين".

* * *

وانقضى الشتاء، وتلاه الربيع.. وربما أدركت لورا حينئذ فقط حقيقة زوجها.. وسوف نراها بعد قليل تقبل الأمر الواقع، وتكتفي بخيانته مرات قليلة وهو الذي يخونها مرات كثيرة..

وفي هذا الصيف من عام ١٨٠١، تغيبت مدام بونابرت في رحلة طويلة للاستشفاء في مدينة بلومبير للمياه المعدنية، وكانت تمني النفس بأن تجد هناك دواء لعقمها. وأثناء غيابها، انتقل بونابرت – طلباً للتسلية – إلى قصر مالميزون الصغير، حيث أحاط به عدد من النساء الجميلات معظمهن من حاشية جوزيفين، وكانت لورا زوجة جونو من بين أولئك النساء..

وكانت أزواج أولئك النسوة مشغولين في باريس بشئون الجيش والإدارة. وفي بعض الأحيان كانوا يعطون الإذن بالذهاب إلى مالميزون لرؤية زوجاتهم. وبعد الانتهاء من تناول الطعام هناك، كان ينبغي على هؤلاء الرجال الذين تعودوا الطاعة والنظام أن يعودوا لأداء واجبهم في العاصمة..

وفي قصر مالميزون، كان نابليون يبدو في أقصى حالات مرحه وسروره.. كان يعدو خلف السيدات في الحديقة أثناء اللعب على "المتوازين" الذي كان يحبه كثيراً.. وبعد تناول العشاء كان يلعب الورق ويجد متعة كبيرة في أن يغش أوراق اللعب، وأخيراً يذهب كل إلى فراشه ليخلد إلى النوم.

وفي فجر ذات يوم، بينما كانت لورا لا تزال نائمة في فراشها، سمعت وقع أقدام في غرفتها.. ولشد ما كانت دهشتها حينما فتحت عينيها ووجدت نابليون واقفاً إلى جوار سريرها!

وانتفضت لورا في فراشها، وقد استولى عليها الذهول، ثم أخذت تفرك عينيها وهي تفكر فيما سيكون عليها موقفها، وحينئذ قطع بونابرت الصمت بقوله:

– حسناً يا مدام جونو.. لماذا كان هذه الدهشة..؟ إنني أنا بعيني!..

ولم تجب لورا، واكتفت بأن تناولت ساعتها التي كانت موضوعة على المنضدة إلى جوارها، ومدت يدها إلى بونابرت..

وصاح القنصل قائلاً:

– كيف؟ ألا نزال في الخامسة؟.. إنني لم أكن أعتقد ذلك.. حسناً، هذا أفضل بكثير.. أننا سنتحدث معاً..

وعلى الفور، جذب مقعداً كبيراً جلس عليه بالقرب من السرير، ثم فك أربطة "دوسيه" كان يمسك به تحت ذراعه، وكان مكتوباً عليه:

"للقنصل الأول وحده.. سري للغاية"، وأخذ يوجه كلمة إلى لورا من حين لآخر، ثم يستأنف قراءة "الدوسيه".. قال نابليون مازحاً:

– نعم.. إنني أنا بلحمي ودمي!

ثم أخذ يقلب أوراق الدوسيه في بطء وهو يتعمد أن يجعلها ترى يديه، لأنهما كانتا جميلتين للغاية.. وأضاف يقول بعد لحظة: "أعتقد أن يدي نظيفتين تماماً".

وظل بونابرت ساعتين جالساً إلى جوار لورا، وعلى حد قولها اكتفى وهو يغادر بأن قرصها في قدمها..!

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، زارها نابليون مرة أخرى، وهكذا دواليك!..

وذات ليلة، وبينما كان نابليون يدخل غرفة لورا، وجد زوجها جونو نائماً إلى جوارها!.. وصاح جونو قائلاً في ذهول:

– يا إلهي!.. ماذا تريد أن تفعل عند زوجاتنا في هذه الساعة يا سيدي القائد؟!

* * *

إن لورا هي التي ذكرت بنفسها أمر هذه الزيارات الغريبة، وقد استنتج البعض من ذلك أنها كانت تريد أن تلمح – بطريق غير مباشر – إلى أنها عشيقة لنابليون، بينما يقرر المهتمون بتبرئة ساحة نابليون من تهمة اختطاف زوجة أحد أصدقائه المخلصين، أن لورا كانت تكذب. وعلى أية حال، فإذا لم تكن هناك علاقة غرامية بين لورا ونابليون، فالمرء لا يسعه – على الأقل – إلا أن يفكر في وجود نزوة عاطفية بينهما.

ويتضح لنا ذلك من سلوك بونابرت – بعدئذ – نحو الزوجين؛ فالواقع أن أحداً من المقربين إليه لم يحصل على عطايا وهبات مالية أكثر من هذين الزوجين، اللهم إلا في القليل النادر. لقد حصل جونو وزوجته من نابليون على قصر جميل، ومنزل خاص، وكثير من الحلي والمجوهرات الثمينة. هذا عدا المرتبات الباهظة، والمنح المالية الضخمة. ولم يكن جونو يتقاضى في عهد الإمبراطورية أقل من خمسة وسبعين مليوناً من الفرنكات، راتباً سنوياً رسمياً، وكانت لورا تظهر في البلاط الإمبراطوري وصالونات العاصمة وهي تضع على رأسها تاجاً مرصعاً قيمته مائة وخمسة وثلاثون مليوناً من الفرنكات. وظلت حياة الزوجين تسير على هذا المنوال، حتى أن جونو خلف وراءه بعد مماته – بعد ذلك باثنتي عشر عاماً – ديوناً تقدر بتسعمائة مليونا من الفرنكات!

ويرى البعض أن المرء يجب أن يربط بين سخاء نابليون بالنسبة لهذين الزوجين وصداقته القديمة لـ "جونو".. وربما كان هذا صحيحاً إلى حد ما، ولكنا لو تتبعنا قصة نابليون مع لورا، لوجدنا أن صلتهما تبدأ في صيف عام ١٨٠١ كما رأينا.. ومما يلفت النظر أنه في الثامن من سبتمبر من نفس العام، أمر نابليون بأن يمنح جونو هبة قدرها ثلاثون مليوناً من الفرنكات، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لعهد حكومة القنصلية.

ولا يشك المؤلف فريدريك ماسون – وهو الذي يدافع دائماً عن نابليون ويعطف عليه كثيراً – في أن ثمة علاقات خاصة وثيقة لا بد كانت تربط بين لورا وبونابرت. ويقول ماسون في ذلك: "إن الإدعاءات – مهما بلغت قوتها – لا يمكن بأي حال أن تكذب الأدلة المادية". والمرء يجد

هذه الأدلة في أرشيفات نابليون الخاصة، حيث سجلت هبة الثلاثين مليون فرنك هذه في سجل قنصل فرنسا الأول. وفضلاً عن ذلك، فإن جونو الذي كان حينذاك قائد لواء فقط، رقي بعد عام واحد إلى رتبة قائد فرقة، على الرغم من أنه لم يقدم أدلة جديدة يثبت بها كفاءته في العمل، والواقع أن مثل هذه الترقية السريعة لا يبررها في العادة غير شيء واحد، وهو إظهار كفاءة نادرة في ميدان القتال، وهذا ما لم يفعله جونو في ذلك الوقت..

إذن، فليس هناك قط ما يدعونا إلى الشك في مغامرة نابليون مع لورا. وقد نعت نابليون لورا – وهو في منفاه بسانت هيلانه – بأنها "طاعون صغير"، لأنها كانت ترفع الكلفة بينه وبينها تماماً إبان عهد الإمبراطورية، والمرء لا يسعه إلا أن يستنتج أنها لا بد كانت تعتقد أن من حقها أن تفعل ذلك لوجود علاقة خاصة بينهما.

لويز

بعد أن عادت جوزيفين من مدينة بلومبير للمياه المعدنية وجدت نابليون يحبها ويهيم بها كما كان يفعل أيام معارك إيطاليا، بل أكثر من ذلك، وكتبت لإحدى صديقاتها تقول:

"لقد وجدت زوجي العزيز يحبني ويعاملني معاملة لطيفة أكثر من أي وقت مضى!".

ولكن لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنها كانت تعلم جيداً أن زوجها القنصل كان يفتح هذه الخطابات ويطلع عليها، ويبدو أن شيئاً لم يعطر صفو جوزيفين في شتاء عام ١٨٠١، وكذلك لم يحدث ثمة ما يثير غضبها في صيف عام ١٨٠٢. ولذا فقد سافرت إلى بلومبير مرة أخرى، وهي مطمئنة كل الاطمئنان إلى تعقل القنصل!

غير أن جوزيفين لم تلبث أن عادت من هناك، وقد سيطر عليها القلق خشية أن تنجح امرأة أخرى في أن تستحوذ على عطف زوجها. ومع ذلك لم تكن جوزيفين تتعذب في ذلك الوقت مثلما كانت تتعذب في عام ١٨٩٨، لقد كبرت سنها قليلاً عن ذي قبل، وأن ثلاثة أعوام أو أربعة خليقة بأن تلعب دوراً مهمًا في حياة امرأة في مثل سنها!

وقبل عودة نابليون من مصر – حينما انتشرت شائعة موته – كانت جوزيفين قد طلبت من هيبوليت أن يتزوجها، ولكنه رفض طلبها بأدب لا ينقصه الحسم. ولم تكن بالطبع تستطيع أن تعرض مثل هذا

العرض على بارا، فقد كان قلبه مشغولاً تماماً .. فضلاً عن أن جمالها لم يعد كافياً لأن يجعلها تستفيد من كرم جنرال آخر، أو رجل من رجال المال الأثرياء. ومن ناحية أخرى فقد كانت مشغولة بإيجاد مركز لابنها وابنتها.. وعلى الرغم من أنها لم تكن تعلم المصير الذي ينتظر بونابرت، إلا أن الدلائل كانت تشير إلى أنه سوف يتغلب ويستأثر بالسلطة، فلماذا ترفض الصلح معه إذن؟.. ثم لماذا ترفض أن تشاطره مغانم مركزه الفريد حين يثبت على قمة الدولة؟

لقد كانت جوزيفين دائماً في حاجة قصوى إلى المال، وهي تستطيع أن تنفق كيفما تشاء إذا ظلت زوجة لبونابرت، وقد أنفقت بالفعل ما تعادل قيمته الآن مليارات من الفرنكات.. إن هذه السيدة كان يلزمها ألف زوج من الجوارب، ومئات من الفساتين، وعشرات من المعاطف، وأقمشة لا تحصى من الدانتيل والحرير الهندي. أما الحلى والجواهر، فسوف تحصل منها على كل ما تطمع فيه، هذا عدا مجوهرات التاج. وكذلك سيحصل أولادها على الثراء الوفير، وإذا حدث وأنهار حكم بونابرت – وهو أمر لم يكن يراودها الشك فيه لأنها كانت مع الملكية في قراره نفسها – فحينئذ تكون قد ضمنت مستقبلها ومستقبل هورتانس وأوجين. وفي عام ١٨١٠، لما اضطرت جوزيفين حينئذ إلى قبول الطلاق، لم توافق على ذلك إلا بعد مناقشات طويلة مضنية حول تحديد الأرقام المالية، وحول منحها مليار فرنك في كل عام، فضلاً عن مطالبتها بثلاثة قصور فخمة، وبحق الاحتفاظ بمجموعة ثيابها ومجوهراتها النادرة، وقد حققت لها جميع هذه المطالب..

والواقع أن جوزيفين كانت تتعلق بمركزها كزوجة لنابليون أكثر من تعلقها بنابليون نفسه.. وكان ما يهدد حياتها هو عدم إنجابها ذرية منه، ولذا كان احتمال طلاقها قائماً على الدوام. ومن هنا كان ارتكازها تارة على فوشيه، وتارة أخرى على تاليران، وأيضاً خوفاً من علاقات زوجها النسائية التي تتعدى مجرد النزوة. وكان كل ما تخشاه أن تحمل إحداهن، خاصة وأنها كانت قد نجحت في إقناع زوجها بأن السبب في عدم إنجابها ذرية يرجع إلى عجزه لا عجزها، بدليل أنها أنجبت من قبل.. إنها لا تهتم بأولئك النسوى اللاتي يقمن علاقة مع زوجها دون أن يقطعن صلاتهن بالرجال الآخرين.. إذ في هذه الحالة لا تستطيع الواحدة منهن أن تدعي أنها حملت من نابليون، بل لعلها لا تجرؤ على أن تنسب إليه ذلك أو حتى على إخباره بالأمر. أما إذا حدث واستطاعت إحدى النساء الذكيات أو الطموحات أن تكرس نفسها له – ولو لبضعة أشهر فحسب – ففي وسعها أن تربطه إليها لو حملت منه طفلاً. وذلك ما كانت جوزيفين مصممة على أن تحول دون وقوعه بأي حال. وهناك شيء آخر؛ فلو توصلت إحدى النساء إلى أن تجعل نابليون يتعلق بها تعلقاً جنسياً لمدة طويلة، فقد تصبح هذه المرأة منافسة خطيرة لها وحليفاً لنابليون!

لكل ما سبق، وضعت جوزيفين أيضاً سياستها الخاصة بها؛ فدرجت على أن تشرف على مغامرات زوجها بنفسها، وأن تحرص على أن تكون هذه المغامرات قصيرة الأمد، وبمعنى آخر، فإنها كانت تشجع العلاقات الطارئة كي تبعد عن نفسها خطر العلاقات الأخرى. ومع ذلك

فقد استولى القلق على نفسها حينما علمت أن إحدى "المنافسات" قد انتهزت فرصة غيابها في بلومبير وتسللت إلى قصر مالميزون، ومن هنا كانت عودة جوزيفين المفاجئة من هناك، فمن كانت هذه المنافسة التي خشيت منها جوزيفين على مركزها ومستقبلها؟

يشرح لنا الكاتب أتدريه جافوتي – الذي يرجع إليه الفضل في اكتشاف هذه القصة – كيف أن هواة الموسيقى الرفيعة في باريس قد أحسوا بصدمة قاسية في اليوم الخامس والعشرين من يونيو عام ١٨٠٢. أنهم كانوا قد هيئوا أنفسهم للاستمتاع بالأوبرا بالإيطالية الجديدة من تأليف بايزييلو، وعنوانها "الخيانة السعيدة"، وكانت هذه الأوبرا قد لاقت نجاحاً كبيراً سابقاً في مدينة ميلانو، لأنها كانت ساخرة ولاذعة للغاية. ولذا كان مجيء فرقة الأوبرا لتقديمها في باريس، يعد في نظر عشاق الموسيقى حدثاً فنياً فريداً. وبالطبع يمكننا أن نتصور مدى دهشتهم وخيبة أملهم، حينما ذهبوا ليلة الافتتاح إلى المسرح، فوجدوا أن هذه الأوبرا قد استبدلت بها واحدة أخرى ضعيفة ومعادة، وأن المغنين والممثلين الممتازين استبدلوا بدورهم، وحل مكانهم آخرون مجهولون. وهكذا وجد الناس أنفسهم ضحية خدعة سخيفة، وهم الذين جاءوا يمنون النفس بالاستمتاع برواية جيدة. ومما زاد الطين بلة، أنهم لما استفسروا عن سبب هذا التغيير في البرامج، قيل لهم أن القنصل الأولى استدعى إلى قصر ماليزون أحسن المغنيين في الفرقة ليمثلوا أمامه أوبرا "عرس دوريه" التي كانوا قد حازوا شهرة خاصة في أدائها. ومن أجل ذلك اضطروا إلى تأجيل العرض الأول لأوبرا "الخيانة السعيدة"! وعلى الرغم

من أنه كان عذراً قاهراً إلا أنه لا يمكن أن يستسيغه هذا النوع من عشاق الموسيقى المتشددين.

والآن، من ذا الذي يجذب انتباه بونابرت في فرقة الأوبرا الإيطالية هذه؟.. لا شك أنه كان يحب الموسيقى والأوبرا الإيطالية، ولكن كان لا بد من سبب مهم يكمن وراء كل هذا الاهتمام!..

كان بونابرت يشاهد المسرح الإيطالي قبل ذلك بعدة أشهر، فسمع حينئذ مغنية لم تكن إيطالية الجنسية برغم أنها كانت تغني في المسرح الإيطالي، وكان اسم هذه المغنية لويز جوزيفين فيليب رولاندو، وكان أصدقاؤها الأعزاء يسمونها لويز..

كانت لويز حينئذ في الخامسة والثلاثين من عمرها، أي أكبر من نابليون بنحو عامين.. ولسنا نجد لوصفها خيراً مما كتبته عنها صحيفة "لوديبا" الفرنسية، قالت الصحيفة: "إنها ليست إيطالية، ولكن ليس هذا عيباً في نظر الجمهور الفرنسي، وهي تبدو من شكلها وطريقة تمثيلها وكأنها باريسية. والناس يحبون كثيراً أن يستمعوا إليها وأن يشاهدوها على خشبة المسرح؛ فهي تجمع بين الدلال والحساسية المرهفة، فضلاً عن أنها تتسم بالرقة والنبل".

إذن فها هي ذي لويز التي لم ينسها بونابرت تصل إلى قصر مالميزون في مساء هذا اليوم من شهر يونيو عام ١٨٠٢. وكانت قد جاءت إلى هذا القصر قبل ذلك لتغني في أوبرا "السيدة الخادمة" لشيماروزا. ولذا استبد الخو بجوزيفين حين علمت — أثناء غيابها — أن

لويز قد عادت من جديد إلى قصر مالميزون، ولم تكد تنقضي على زيارتها الأولى للقصر ستة أسابيع..

ولما كانت جوزيفين امرأة قوية العزيمة، فقد شعرت بالخطر الذي يهددها وثارت لتدخل "هذه الإيطالي"، ولاسيما أنها كانت تعرف جيداً طبائع زوجها، ومن هنا كانت عودتها السريعة المفاجئة إلى باريس..

وصبت جوزيفين جام غضبها على رأس بونابرت، ولكنه راح يؤكد لها أنه لا يعبد أحداً سواها، وأنه سيصارحها بكل مرة يخونها فيها، ثم لامها لأنها قطعت هذه الرحلة المفيدة!.. ولكنها لم تعبأ بما قال واستمرت في ثورتها حتى تدخلت ابنتها هورتانس وحاولت تهدئتها، فأفلحت.. وأظهر نابليون عرفانه بالجميل لابنة زوجته، فمنحها منزلاً خاصاً من أجمل منازل العاصمة!..

أما لويز، فقد ضحى بها على الفور.. وشاء القدر أن تكون نهاية هذه السيدة نهاية سيئة، فبعد أن كانت قد سافرت إلى بلجيكا عام ١٨٠٦ لإدارة أحد المسارح بمدينة جان، اضطرت للعودة إلى باريس في بداية عام ١٨٠٧ كي تستعيد عملها في مسرح فيديو. وفي بداية شهر مايو من نفس العام، شبت النار في ثوبها بينما كانت واقفة أمام المدفأة، وانتهت حياتها والنار فيها.. ولما هرع الناس لنجدتها كانت قد فارقت الحياة!

ورطة

كانت هناك ممثلة مسرحية تدعى "مارجريت فيمر"، اشتهرت في عالم المسرح باسم مدموازيل جورج.. أما بونابرت، فكان يدللها باسم جيورجينا.

وكانت مدموازيل جورج ذات قوم بديع.. وكان وجهها جميلاً جذاباً، ومع ذلك لم يكن أداؤها بارعاً على المسرح.. وكل سمعتها في هذا الميدان ترتكز على علاقتها ببونابرت، وهذا ما أثار نحوها فضول كتاب القرن التاسع عشر من أمثال: هيجو، ودوماس، وغيرهما..

ولم تكتف مدموازيل جورج بأنها عشيقة القنصل الأول، وإنما استطاع نخبة من أكابر أوروبا أن يفخروا بأنها كانت عشيقة لهم. والواقع أن هذه الممثلة كانت "كريمة" جداً في هذه الناحية، ولاسيما وأن هذا الكرم كان يعود عليها بثراء وفير!.. وكانت تعمل على ترويج أسطورة حول نفسها، مؤداها أن القنصل الأول كان يمثل بالنسبة لها حبها الأول والوحيد.. وكان من بين عشاقها المشهورين – قبل أن تصل إلى نابليون – لوسيان بونابرت. وكان نابليون يحب كثيراً أن يغيظ أشقاءه في الأمور النسائية – وخاصة لوسيان – ولم يكن يتورع من مغازلة الفتيات اللاتي حصل عليهن عن طريق مورا زوج شقيقته!

كانت باريس كلها تتحدث عن جمال مدموازيل جورج.. ولم تكن هذه الممثلة قد رفضت للوسيان بونابرت أي مطلب، ولذا كان طبيعياً أن تخضع لرغبة شقيقه الحاكم!

وبدأت مغامرتها من نابليون بصورة عادية، فقد أرسل إليها مبلغاً كبيراً من المال قدره تسعمائة ألف فرنك، وذلك كي يشعرها باهتمامه بها. ولما لم تكن مدموازيل جورج بالمرأة الغبية، فقد آثرت ألا ترد عليه، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى أحد أمرين، فإما أن يرسل إليها هدية جديدة، وإما أن يصدر لها أمراً بأن تأتي لتقدم له فروض الطاعة والشكر..!

وقد صح ما توقعته.. في ذات ليلة، وبعد انتهاء إحدى حفلات المسرح، أتى خادم ليصحبها معه في عربة إلى قصر سان كلو. ويمكننا أن نتصور ما حدث بعد ذلك؛ فلم يكن بونابرت بالرجل الذي يضيع وقته في "المقدمات" مهما كان الموضوع الذي يعالجه. وقد قصت هذه المرأة الجميلة – فيما بعد – كيف أنها جعلت هذا القائد الذي دوخ الكثيرين يحني رأسه احتراماً لطهرها وعفافها، وكيف أنه صبر كثيراً من أجل أن تتكرم عليه يوماً وتسلم إليه نفسها. وبالطبع كان كل ذلك محض خيال!.. إنها كانت قد قبلت الهدية، فلم يكن أمامها إذا إلا أن تنفذ طلب منها..

* * *

قاد الخادم الممثلة إلى غرفة نوم لها شرفة واسعة، ثم خاطبها قائلاً:

– إنني ذاهب لإخطار القنصل الأول يا سيدتي..

وتطلعت الممثلة حولها في أرجاء الغرفة الفسيحة، ووقع بصرها على سرير ضخم منصوب في نهايتها.. إنها هنا ستسدد دينها لبونابرت. وكانت نوافذ الغرفة وأبوابها مغطاة بستائر كبيرة من الحرير. وهنا وهناك في كل مكان، كانت الأنوار تنبعث من نجفة كبيرة ومجموعة من الشمعدانات. وقالت الممثلة تحدث نفسها: "يا إلهي!.. إن هذه الغرفة مضاءة كما لو كانت ستقام بها حفلة راقصة".

واستولى القلق على نفسها، فخطر لها أن تجلس على أريكة إلى جوار السرير، وأن تغطي وجهها بوشاح فاخر كان قد أهداه لها أحد معارفها. وما كادت تفعل، حتى دخل بونابرت الغرفة، واتجه إليها مباشرة، فأخذها من يدها وأجلسها على أريكة أخرى أكبر حجماً، ثم نزع وشاحها في غير كلفة وألقى به على الأرض..

ودار الحديث بينهما عن المبلغ الذي أرسله إليها، وعن السبب الذي أخرها عن الحضور لتقدم له الشكر. وتلعثمت الفتاة الشابة..! واستمر في حديثه فسألها عن اسمها بالكامل. ولم يشأ أن يسميها مارجريت، وقرر أن يسميها جيورجينا. وبعد ذلك لم يجد كل منهما ما يقوله للآخر.. وبعد فترة صمت طويلة قال:

– لماذا لا تتكلمين يا عزيزتي جيورجينا؟

فشكت من الضوء الذي يتبعها، وقالت:

– أرجو أن تأمر بإطفاء الأنوار.. فهذا يريحني كثيراً ويتيح لي أن أسمع إليك وأجيبك..

– كما تريدين يا عزيزتي جيورجينا..

ودق بونابرت الجرس للخادم، ولما جاء أمره – وهو يشير إلى النجفة – قائلاً:

– أطفئ هذا النور..

والتفت إلى جيورجينا وأضاف قائلاً:

– هل يكفي هذا؟

فقالت في تردد:

– كلا.. أرجو أيضاً أن تأمر بإطفاء نصف هذه الشمعدانات.. إنها أكثر مما ينبغي.

فوافقها نابليون على الرغم من أنه كان يحب أن يحتفظ بضوء قوي يتيح له أن يكشف أي عيب في جسم عشيقته قال:

– حسناً جداً.

وأمر الخادم بإطفاء عدد كبير من الشمعدانات..

والتفت يقول لها بعد أن أصبح الضوء خافتاً:

– هل ترين الآن جيداً؟

فقالت:

– ليس جيداً، ولكن بما فيه الكفاية..

ولم يكن الفجور قد قتل بعد الروح الشابة في نفس هذه الفتاة المدربة في شئون الهوى والدلال، فعرفت كيف تستخدم خبرتها هذه مع بونابرت الذي وصل إلى المجد في وقت مبكر، فلم يتح له أن يمارس لذات الشباب بما فيه الكفاية!

وقد أتيح للمقيمين بقصر سان كلو أن يشاهدوا هذين العشيقين يلعبان معاً على السجاد، ويجري كل منهما خلف الآخر وكأنهما تلميذان صغيران!

وغمر نابليون عشيقته بالحلي والمال والأحجار الكريمة، وكان كلما افترق عنها لبضعة أيام أو أسابيع يضع لها في صدرها رزمة من الأوراق المالية.. وقد وصل مجموع هذه المبالغ إلى اثني عشر مليوناً من الفرنكات!

ومع ذلك كان لا يتورع عن أن يجرح شعورها وكثيراً ما كان يقول لها:

– إن قدميك غير جميلتين.

وكانت من ناحيتها تعرف ذلك، وهذا هو السبب في أنها لم تنزع جوربها وهي معه ذات مرة، فقال لها في سخرية ودون أدنى شفقة: "إنك تحاولين إخفاء قدميك لأنهما قبيحتان!".

وذات ليلة وقعت مفاجأة لم تكن في الحسبان، فقد أصيب نابليون وهو بين ذراعيها بأزمة عصبية عنيفة، وجن جنون جيورجينا حينما رأته يفقد الوعي، فاندفعت خارج الغرفة وهي شبه عارية، وأخذت تقرع الأبواب وتشد حبال الأجراس حتى أيقظت جميع من في القصر. وهرع إليها خادم نابليون الخاص، ومن بعده آخرون من بينهم جوزيفين زوجة بونابرت نفسها.. فيا للمنظر الذي شاهدته!

ومن الغريب أن جوزيفين وجيورجينا تعاونتا معاً – في جو تسوده المودة بدلاً من العداء – في إعادة الوعي إليه، ولما أفاق، فتح عينيه

وتأمل عشيقته التي كانت تمسك به بين ذراعيها، ثم ألقى نظرة على زوجته، وحينئذ عادت إليه ذاكرته على الفور، وثار ثورة عنيفة كادت أن تعود به إلى الحالة التي كان فيها منذ قليل. وارتعدت الممثلة من الخوف، ولم يكن أمامها بعد ذلك إلا أن تختفي في الحال!

وكان ذلك إلى حين؛ فقد دامت علاقتهما بعد ذلك مدة عامين. ولكنهما لم يكونا مخلصين تماماً لبعضهما البعض؛ فقد كان لنابليون عشيقات أخريات. وكانت مدموازيل جورج تذهب إليه كلما عن له أن يطلبها، ومن ناحية أخرى كانت مشغولة بدورها مع سادة آخرين.. لقد كان رجال المال والدبلوماسيون يتقاسمون هذه الفتاة التي كان نابليون يعتقد أنها ملك له وحده، ولذا كان غضبه شديداً حينما علم أخيراً أنها لا تبخل بنفسها على أحد!

وضاعفت مدموازيل جورج من مغامراتها لدرجة أن فوشيه وزير الشرطة كان يقدم عنها تقريراً يومياً إلى بونابرت. ومع ذلك لم يشمئز منها نابليون إلى الدرجة التي تجعله يقطع علاقته بها تماماً، واستمر في سخائه عليها بالمال. وفي عام ١٨١٣ كرس لها من وقته بعض السهرات أثناء حملة ألمانيا. وبعد عودته من جزيرة اليا في عام ١٨١٥، استطاعت أن تحصل منه على مبالغ مالية طائلة.. وهكذا كانت نهاية ذلك الغرام الذي انتهى بالمال كما بدأ من أجل المال.

أنطوانيت

في الفترة ما بين إعلان الجمهورية، في مايو عام ١٨٠٤، والتتويج في ديسمبر من نفس العام، لعب عدد من النساء دوراً في حياة نابليون، ومن بينهن امرأة جميلة، تدعى "ماري أنطوانيت إليزابيث"، عرفها أثناء رحلته إلى الضفة اليسرى من نهر الراين..

كانت أنطوانيت ابنة رجل مشهور هو الجنرال لوميشودارسون – أحد علماء الجيش الملكي القديم – وواحد من أبرز أعضاء مجلس الشيوخ في عهد حكومة القنصلية، وكانت متزوجة من ضابط يدعى أوكتاف فودريه. وقد تم زواجهما في ١٠ فبراير ١٧٩٠، وكانت أنطوانيت في السادسة عشرة من عمرها حينذاك، بينما كان زوجها في الخامسة والثلاثين. وفي يوليو من عام ١٧٩١، عين أوكتاف ضابط أركان حرب لوالد زوجته، ولكنه ما لبث أن هاجر من فرنسا في نهاية هذا العام. وكانت أنطوانيت تتردد على صالونات قصر اللوكسمبورج أيام بارا، وأيضاً على صالون مدام تاليان، ولذا كانت تعرف جوزيفين منذ ذلك الحيان.

وبعد انقلاب بروميير، لجأت أنطوانيت إلى الجنرال كيلرمان تطلب منه أن يتوسط لها لدى القنصل الأول من أجل إعادة زوجها إلى صفوف الجيش، ولكن طلبها لم يحقق.. ومن ناحية أخرى كانت هناك نية للطلاق بين الزوجين. وكان والدها قد مات أثناء ذلك.. والذي لا

شك فيه أن أنطوانيت قد عرفت ضيق ذات اليد في عهد حكومة القنصلية، بل ويقرر البعض أنها كانت تعيش في بؤس كبير، ومن هنا واتتها فكرة التخلص من شقائها وعوزها عن طريق إغراء بونابرت بجمالها وسحرها.. ودبر لها دوروك كاتم أسرار نابليون — الذي كانت تعرفه — مقابلة مع سيده، وكان عليها أن تفعل الباقي!..

كانت أنطوانيت سيدة مثيرة بارعة الجمال، وكانت تتمتع بقسط وافر من الجاذبية وخفة الروح؛ فلم يكن غريباً إذن أن تنجح مقابلتها مع نابليون. ولما كاشفته أنطوانيت بمسألة ديونها، أمر بإعطائها المال لتسديده على الفور، وهكذا خرجت السيدة الشابة من ورطتها المالية!

وربما تمت مقابلتهما الثانية بعد الأولى بوقت وجيز، وعلى أية حال، فقد انتهت هذه المقابلة أيضاً بمناورة مماثلة كللت بالنجاح.. وقبل أن تغادر جوزيفين قصر سان كلو للذهاب إلى أكسي لاشيل، عين نابليون أنطوانيت — أو مدام فودريه — وصيفة من وصيفات القصر، وكان نابليون حينئذ مع جيشه في مدينة بولونيا.

ودهشت جوزيفين من تعيين أنطوانيت، ولم تلبث أن وقعت فريسة غيرة شديدة من هذه المرأة التي كان المقصود من تعيينها زيادة عدد الحريم في القصر. ومع ذلك، حاولت جوزيفين أن تخفي مشاعرها أمام هذه المنافسة الجديدة، بل وأخذت تشكو إليها بآلامها ومشاكلها.

وذات يوم، دخلت أنطوانيت عرفة جوزيفين فوجدتها تبكي في مرارة. ولشد ما كانت دهشتها حينما أشارت جوزيفين إلى لوحة صغيرة تمثل امرأة ترتق قميصاً إلى جوار زوجها عامل الأحذية، وقالت:

– آه! يا سيدي.. إن هذه المرأة أسعد مني بكثير!..

ولعل جوزيفين كانت تحاول – بهذه الوسيلة – إثارة عطف أنطوانيت فتثنيها بذلك عن زوجها..

وفي مدينة مايونسى، استمتعت أنطوانيت إلى نابليون وهو يتحدث عن السعادة والشقاء ويقول شارحاً: "ليس في هذه الدنيا سعادة أو شقاء.. وكل ما هنالك أن حياة الرجل السعيد تشبه لوحة من الفضة عليها بعض النجوم السوداء، وحياة الرجل الشقي تشبه لوحة سوداء عليها بعض نجوم من الفضة".

وكانت أنطوانيت لا تشارك نابليون احتقاره للشعب حين كان يقول: "إن الشعب كالماء، فهو يأخذ شكل كل وعاء". وكانت تقول فيما بعد:

"إن الرجال الذين أدهشوا العالم بعبقريتهم وجرأة أفكارهم يظهرون لنا – حين نراهم عن كثب – بشكل يختلف عن المظهر الذي يبدون به أمام الملايين العديدة من الناس". ولاحظت كذلك أن نابليون لم يكن يحب أن توجه إليه أسئلة من أحد.. وعللت ذلك بأنه "كان يجب ألا يفاجأ بأي موضوع قبل أن يعد له العدة". وكنت تقول أخيراً: "كيف تستطيع النساء أن يحببن غازياً قاسي القلب؟"، ولكنها لم تكتب هذا الكلام إلا بعد انتهاء علاقتها بنابليون بوقت طويل!.

وهناك أسطورة حول أنطوانيت مؤداها أنها كانت تقدم فاتورة لنابليون بعد كل مرة يمارس معها الغرام. وأخيراً مل العشيق هذه المعاملة، فقال لدوروك: "إنني لست من السذاجة بحيث أشتري بثمن مرتفع ما

أجده رخيصاً عند الأخريات.. بلغ شكري لمدام فودريه على لطفها معي، ولا تحدثني عنها بعد ذلك أبداً".

وهناك رواية مؤداها أن أنطوانيت طلبت منه مالا مرة أخرى، فأرسل إليها مندوباً وجدها تعيش في رغد من العيش وليس في بؤس وشقاء – كما تدعي – وحينئذ غضب نابليون وقطع علاقته بها بصفة نهائية. ولكن هذه الرواية الأخيرة تبدو غير صحيحة، إذ من المعروف أن سخاء نابليون كان يفوق كل حد. ومن ناحية أخرى كانت أنطوانيت تعيش حينئذ في نفس المنزل الذي كانت تسكنه في بداية عهد حكومة القنصلية، وهو المنزل الذي يقع في شارع تويلري بين باسي وحي أوتورمي. وأخيراً فإن هذه الروايات لا تضع في الحسبان أن مدام فودريه كانت وصيفة في القصر، فلم يكن من المعقول إذن أن يتم فصلها على هذا النحو!

والذي حدث أن نابليون وجوزيفين وحاشيتهما عادوا إلى قصر سان كلو في ١٢ نوفمبر ١٨٠٤. ووفقاً لما ذكرته إحدى وصيفات القصر، كانت جوزيفين تشعر بغيرة شديدة من مدام فودريه التي تتمتع بحظوة كبيرة لدى نابليون. وفجأة تلقت مدام فودريه أمراً بأن تقدم استقالتها، فقدمتها على الفور، وقد حدث ذلك في ٢٩ نوفمبر من نفس العام..

وسارت حياة أنطوانيت بعد ذلك على نهج كله بؤس ومغامرات، وفي عام ١٨١١، اضطرت أن تبيع أثاث منزلها. وفي آخر أيام حياتها كتبت تقول:

"كنت امرأة ثرية، تذوقت كل ملذات الدنيا ومتاعها.. ثم انتقلت من الثراء إلى الفقر، ومن الفقر إلى البؤس والعوز، ويمكنني الآن أن أقدر ما يشعر به المرء في كل حالة من هذه الحالات.. فهل يصدقني الناس إذا قلت إنني وجدت – وأنا أعاني البؤس والعوز – ملذات روحية لم أكن أعرفها من قبل؟".

ولا شك أن مدام فودريه كانت أكثر عشيقات نابليون ذكاء وخفة روح..

فيليسيتيه أخرى

كان دون جوان قصر التويلري يلقي شباكه على كل امرأة تعجبه – مهما كان مركزها – وفي الحال. وهكذا كان ينتقل من سيدة القصر إلى ممثلة بسيطة، ومن الممثلة البسيطة إلى خادم متواضعة، وأحياناً إلى غاسلة للثياب!

وكانت جوزيفين غاية في التسامح بالنسبة لنزوات زوجها، وخاصة حين يتعلق الأمر بفتيات غير خطرات.. بل أنها كانت تذهب إلى أكثر من ذلك وتشجع بعض نزوات زوجها مع هذا القطاع "الثانوي" من نساء القصر!

ولبت جوزيفين طلب نابليون بأن يكون عند مدخل جناح الإمبراطورة "صالون تشغله فتيات جميلات". واختارا من بين خادمات القصر عدداً من الفتيات لقبن "سيدات استقبال". وكان سرور نابليون كبيراً بذلك، وكان سرور زوجته أعظم منه، وهكذا أصبحت جوزيفين كاتمة أسرار لغراميات زوجها، والتقى نابليون بكثير من الفتيات في شقته السرية الصغيرة هذه!

ومن بين أولئك الفتيات، كانت هناك واحدة تدعى فيليسيتيه لونجروا، وهي ثاني امرأة تدعى فيليسيتيه في حياة نابليون الخاصة.

وهناك قصة حول فيليسيتيه تصورها على أنها كانت ضحية لـ "سادية" بونابرت.. وتزعم هذه القصة أن بونابرت أمر خادمين بتقييدها

على السرير ووضع كمامة في فمها، وبعد أن اختفى الخادمان، قام نابليون بالاعتداء عليها.. تلك هي خلاصة القصة السخيفة غير المعقولة التي كانوا يروجون لها حيئنذ.. إذ الواقع أن نابليون لم يكن محتاجاً لاستعمال العنف كي يحصل على فيليسيتيه، لأنها كانت على استعداد لأن تمنحه نفسها.. ويبدو أن نابليون قد تعلق بها بعض الوقت.

كان والد فيليسيتيه يعمل حاجباً لمكتب الإمبراطورة في القصر. وكان يحصل على راتب قدره تسعون ألف فرنكا في الشهر، عدا مبلغ مماثل كان يتسلمه كل عام كبدل للملابس، وكان عمها أيضاً يعمل منجداً في خدمة الإمبراطور والإمبراطورة، بعد أن كان "مرمما" لقطع الأثاث في قصر لامويت في العهد البائد. وكان العم هو الذي التحق أولاً بخدمة الإمبراطور، ثم لحقت به فيليسيتيه في ٢٢ أكتوبر عام ١٨٠٤، وأخيراً والدها في الثاني والعشرين من شهر نوفمبر التالي. وهكذا بدأت خدمة الفتاة في القصر قبل تتويج نابليون ببضعة أسابيع.. أما علاقتها به فقد بدأت في عام ١٨٠٥، بعد رحلة إيطاليا التي اتفق بعدها على عدة مواعيد بينهما، التقيا فيها دون أي مضايقة من ناحيتها.

وكانت جوزيفين راضية عن هذه المغامرة الصغيرة، فلم تأمر بطرد الفتاة، واستمرت فيليسيتيه في تأدية مهام منصبها بمرتب قدره تسعون ألف فرنكا في الشهر، أضافت إليها جوزيفين ضعفها كراتب إضافي. وفي خريف عام ١٨٠٧ تزوجت فيليسيتيه وأصبحت مدام ريزنير.. وحملت الفتاة من زوجها على الفور. وانتهزت جوزيفين هذه الفرصة لتقوية حجتها بخصوص عجز بونابرت عن إنجاب ذرية. وكانت مدام هاملان — إحدى

صديقات جوزيفين – تقوم بحملة دعاية واسعة حول هذا صديقات جوزيفين – تقوم بحملة دعاية واسعة حول هذا الموضوع، وتحكي عن ذلك أشياء عجيبة كانت تصل إلى أذن فوشيه وزير الشرطة. وكان فوشيه يسرع بإبلاغ نابليون بخطورة هذه الشائعات، ولكن جوزيفين كانت تدلل على صدق زعمها بأن علاقة نابليون بالنساء في هذه الفترة من الزمن لم تعط ثماراً، فيحين أنهن حملن – على الفور – بمجرد زواجهن. وكان الناس يقفون بالذات عند حالة فيليسيتيه! وقد تركت فيليسيتيه القصر عند طلاق جوزيفين من بونابرت!

مؤامرة

في خريف مايو عام ١٨٠٥، غادر نابليون باريس ليتسلم قيادة جيشه الكبير بعد أن نشبت الحرب من جديد مع النمسا وروسيا، وانتهت الحملة بأعظم وأشهر انتصار لنابليون في معركة أوسترلتز.

وأثناء إقامة نابليون في مدينة فيينا، عرض عليه مورا زوج شقيقته أن يعرفه "بسيدة مدهشة". قال له مورا: "أريد أن أعرفكم بسيدة رائعة متيمة بحبكم، وهي لا تريد أحداً سواكم.." وبرغم أن نابليون كان قليل الثقة بمورا، فقد طلب إليه أن يحضر هذه السيدة.

وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة – أي في عام ١٨١٧ – قال نابليون عن هذه السيدة لصديقة جورجو: "إنها لم تكن تعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية، ولم أكن أعرف أنا كلمة واحدة من الألمانية. ولكنها أعجبتني كثيراً لدرجة أنني قضيت معها ليلة كاملة، وكانت من ألطف من عرفتهن من النساء. وذات صباح أيقظتني من النوم، ولم أرها بعد ذلك أبداً.. ولم أعرف قط من كانت هذه السيدة".

وأضاف نابليون: "ومع ذلك، فقد صرح رئيس شرطة فيينا في عام ١٨٠٩ بأن هذه السيدة كانت تدعى جوديت.. ولكن ربما كان ذلك الاسم من نسج الخيال".

ويبدو لنا أن هذه القصة تتعلق بالكونتيسة "ن" التي ورد ذكرها في مذكرات كونستان، فقد كتب كونستان يقول:

"قبل رحيل الإمبراطور من قصر شونبرون في عام ١٨٠٩ بيومين أو ثلاثة أيام، حاول أحدهم اغتيال نابليون مرة أخرى بعد محاولة ستابس. وفي هذه المرة كانت امرأة هي المكلفة باغتياله، وهي الكونتيسة ن..كانت الكونتيسة "ن" في ذلك الحين تلفت إليها جميع الأنظار لجمالها الفائق، وأيضاً لعلاقتها باللورد باجيت سفير بريطانيا. ومن الصعب أن يصف المرء سحر هذه السيدة ورقتها.. وكانت صالونات فيينا لا تفتح لها أبوابها إلا مع شيء من الكراهية. ولكنها كانت تستعيض عن ذلك باستقبال ألمع عناصر الجيش الفرنسي في منزلهما الخاص!

وفكر أحد متعهدي الجيش في أن يتيح للإمبراطور أن يتصل بهذه السيدة، وعرض الرجل الأمر على الكونتيسة دون أن يحيط صاحب الجلالة علماً بذلك. وكان اتصاله بها يتم عن طريق أحد أصدقائه، وهو ضابط نمساوي من فرقة الفرسان كان ملحقاً بالشرطة العسكرية في مدينة فيينا.. واعتقد ضابط الفرسان هذا أنه كان يتحدث بأمر من جلال الإمبراطور، فأخبر الكونتيسة – بكل سذاجة – أن الإمبراطور سيسر أيما سرور برؤيتها في قصر شونبرون في مساء نفس اليوم، وكان الضابط يتحدث إليها في الصباح..

وطلبت الكونتيسة أن تعطى مهلة للتفكير في الأمر أثناء النهار، وأضافت أنها تريد أن يبرهن لها – بأدلة لا تقبل الشك – على أن الإمبراطور يريدها حقاً، فأكد لها الضابط صدق قوله، ووعد بأن يقدم لها الأدلة الكافية.. وأخيراً رحل بعد أن ضرب لها موعداً في المساء.

وعاد الضابط إلى المتعهد وأخبره بما تم، فأعد هذا عربة لتكون جاهزة تحت تصرف الضابط في المساء. وفي الموعد المتفق عليه توجه ضابط الفرسان إلى الكونتيسة وهو يعتقد أنه سيعود بها معه، ولكنها رجته أن يعود إليها في اليوم التالي محتجة بأنها ليست على استعداد لتلبية طلبه، وأنها في حاجة إلى شيء من التفكير. وأبدى لها الضابط بعض الملاحظات، ثم انصرف بعد أن أعطته كلمة شرف بأنها ستكون مستعدة في اليوم التالي.

وصرف الضابط العربة بعد أن أمر سائقها بأن يعود في اليوم التالي، وفي نفس الموعد..

وفي هذه المرة استقبلته الكونتيسة في مزيج من الاهتمام والسرور.. ووجدها الضابط مستعدة فعلاً للرحيل. وجعلته يثق بذلك بأن أرته ملابسها التي رتبتها كما لو كانت مقبلة على سفر طويل، وأخيراً نظرت في عينيه، وقالت له بغير كلفة:

– يمكنك الآن أن تعود لاصطحابي بعد ساعة واحدة، وسوف تجدني على استعداد تام للرحيل.. نعم، إنني سأذهب لمقابلته، ويمكنك أن تعتمد علي في ذلك. أما بالأمس، فقد كانت لدي بعض الأعمال التي يجب أن أصفيها.. إنك لا شك نمساوي وطني، وستبرهن على ذلك.. وأنت تعرف بالطبع مدى الأضرار التي يلحقها هذا الرجل بوطننا.. حسناً! إنني سأنتقم لبلادنا في هذا المساء!.. فتعال لتأخذني، ولا تتخلف عن ذلك..

واستولى الذعر على الضابط حين علم بنية المرأة، وأسرع من فوره إلى قصر شونبرون وقص على الإمبراطور كل شيء، فكافأه بسخاء، وحثه على ألا يرى الكونتيسة بعد ذلك من أجل مصلحته الشخصية، وأمره نابليون بألا يذكر شيئاً من هذه المسألة.

ويبدو أن تلك هي القصة التي لمح بها نابليون إلى صديقه جورجو في مايو من عام ١٨١٧، حين قص عليه مغامرته مع السيدة النمساوية اللطيفة، ولم تكن جوديت بالطبع هي بطلة هذه المغامرة.

أستيفاني

كان النقاد يرددون – بعد أفول نجم نابليون – أنه قلما كان يتحرج من ممارسة "حق السيادة". وكانت أحاديث جوزيفين نفسها هي مصدر هذه الشائعات.. ألم تقص جوزيفين مثلاً أن زوجها قد حاول الاعتداء على عفاف كاترين دي دستفاليا الخطيبة التي كانت تنتظر شقيقة جيروم؟..

وعلى الرغم من أن أحداً لم يكن يصدق جوزيفين، فقد صدق الناس – وربما كان لهم الحق في ذلك – أن نابليون قد مارس حق هذه السيادة على قريبة شابة لجوزيفين تدعى "ستيفاني دي بوهارنيه".

كانت استيفاني هذه في السابعة عشرة من عمرها، أو أقل قليلاً، حينما أخذ الناس يتحدثون عنها، ولكنها كانت حينذاك ناضجة مكتملة النمو تبدو كأنها في الحادية والعشرين.. ولما كان نابليون يحاول أن يوفق بين مصالح السياسية وأطماع أسرة جوزيفين، فقد قرر أن يزوج استيفاني في بوهارنيه من الأمير لويس أمير بادن. وكان قد اتخذ قراره هذا في نفس الوقت الذي قرر أن يزوج فيه أوجين دي بوهارنيه – ابن عم استيفاني – من أوجستا أميرة بافاريا..

كانت استفاني شابة شقراء، زرقاء العين، ذات وجه جميل وبشرة مخملية، وكانت مرحة خفيفة الظل ذات صوت ساحر. ولم تكن استيفائي تأمل في زواج يرفعها إلى مصاف الأميرات.. ولكن نابليون كان يعد لها

مشروعات أخرى. وسواء أكان قد مارس معها "حق السيادة" أم لم يمارسه، فمما لاشك فيه أنها كانت تفتنه بسحرها وخفة روحها، وكثيراً ما كان يفكر فيها قبل معركة أوسترلتز.

وبعد عودته من النمسا، أمر باستدعائها إلى القصر، وجعلها تقيم في شقة مجاورة جوزيفين، وبدأ يهتم بها اهتماماً كبيراً منذ ذلك الحين. وكثيراً ما كان يثيرها كي تجيب عليه بحرية وبغير كلفة، لأنها كانت على حد قوله: "ساحرة وذات حيوية دافقة". ومن هنا بدأت جوزيفين تشعر بالقلق، ويبدو أنها تشاجرت مع زوجها لهذا السبب.

واستمر نابليون مع ذلك يدلل استيفاني، فقد منحها ثياباً تقدر قيمتها بخمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات، وأهداها كميات كبيرة من الحلي والمجوهرات، وعقداً بديعاً من الماس.. ومنحها أيضاً ستة ملايين من الفرنكات كمصروف شخصي، ودوطة قيمتها ٤٥٠ مليوناً من الفرنكات.. كل ذلك بمناسبة زواجها!

ولم يتوقف سخاؤه عند هذا الحد، إذ منح والدها – الذي عينه عضواً في مجلس الشيوخ – وظيفة شرف جعلت راتبه يصل إلى خمسة عشر مليوناً من الفرنكات في العام. وأضاف نابليون إلى ذلك سبعة ملايين من الفرنكات كهبات، ثم منحه وظيفة "فارس شرف"، يصل راتبها السنوي إلى تسعة ملايين من الفرنكات والوقع أن مثل هذا الجمع بين وظائف عديدة مختلفة، لم يحدث مثله من قبل..

ولم يعبأ نابليون "ببروتوكول" القصر، وأعطى لستيفاني حق الجلوس على أعلى مقعد إلى يمين الإمبراطور، ولم يكن لها حق

الجلوس إلا على كرسي صغير. وهكذا كانت لها الأسبقية على جميع "صاحبات السمو" في العائلة، وأيضاً على جميع سيدات عائلة بونابرت!.. وبلغ كرمه الذروة حينما تبناها، فإنها ستصبح غداً زوجة لأمير بادن، ولكن بوصفها ابنة لإمبراطور فرنسا. وكانت الكارثة الكبرى حين منحها إقطاعية تحكمها، فقد ارتكب بذلك خطأ فاحشاً إذا جرد نفسه من هذه الإقطاعية المهمة التي كانت دويلة ألمانية اسمها: بريجزو. والواقع أن نابليون لم يكن يعرف جيداً جغرافية ألمانيا، ومن ثم فقد بعث برسول خاص إلى بلاط بادن ليخبر الأمير "بأن الإمبراطور يمنحه كدوطة إقطاعية بريجزو". وأضاف الرسول قائلاً: "وأظن أن في نية الإمبراطور أن يضيف إلى هذه الإقطاعية أورتناو". ولم يكن نابليون يعرف ما هي أورتناو هذه!

وكانت أورتناو دويلة صغيرة في إقليم "صواب"، وقبل نابليون أن تضاف هذه الدويلة إلى إقليم دوطة استيفاني دون أن يدري ما ستسببه هذه الهدية من فرح في بلاط بادن. فهو لم يكن يعرف قيمتها. ولو أنه كان قد احتفظ فقط —كما نصحوه— بدويلة بريجزو، لأصبحت بفضلها منطقة فيوبريزاج حصناً رهيباً يفوق في الأهمية مدينة كيل بكثير. ولو لم يحدث هذا التنازل من جانب نابليون، لما استطاع الحلفاء قط غزو منطقة بازل في عام ١٨١٤، حين هبت أوروبا تثأر منه.

وأمر نابليون بأن تقام الزينات في باريس احتفالاً بزواج استيفاني. وأقيمت الحفلات الراقصة في كل مكان، وكانت الصغيرة استيفاني تعيش في نشوة بسبب ذلك. ومن المعروف أنها منعت عريسها من الدخول إلى

غرفتها ليلة عرسها.. وفزع الأمير باب الغرفة راجياً متوسلاً دون جدوى، حتى اضطر أخيراً إلى قضاء ليلته على مقعد كبير. ولم يخف نابليون سروره حين علم بالأمر!.. وتكرر نفس الشيء في الليالي التالية.

وقررت جوزيفين أن تضع حداً لهذه المهزلة بتحطيم أوهام الفتاة وتمكين الزوج من ممارسة حقه الشرعي، فأوضحت لزوجها مدى السخرية التي يثيرها بمساندته لآمال الفتاة الخيالية.. وأخبرته بأنه لا يستطيع أن يترك السنة السوء تتسلى على حسابه في البلاط، مدة أطول من ذلك.. فهو أمر لا يليق بكرامته أو بسنه، وأصرت أخيراً على أن يعمل على تحطيم عناد هذه الفتاة..

وخضع نابليون لرأي زوجته، وعجل برحيل حبيبته الصغيرة إلى بلاد زوجها، وكان يتصور أنها حين تصبح بعيدة عنها، فلا بد أنها ستسلم نفسها لزوجها. وأخيراً رحلت استيفاني وقد بلغ اليأس من نفسها أقصاه!

ومن الغريب أنها ظلت فترة من الزمن دون أن تستسلم لزوجها أمير بادن، وكأنما تريد أن تحتفظ بنفسها خصيصاً من أجل بونابرت. ولكن السياسة التي كانت تقضي حينئذ بألا تحدث فضيحة في بادن اضطرتها للخضوع آخر الأمر، ولاسيما أن صدى مثل هذه الفضيحة كان خليقاً بأن يكون خطيراً بالنسبة لنفوذ الحكومة الفرنسية هناك، ولم يهدأ نابليون إلا حينما أعلنت له أستيفاني أنها حامل، واستطاعت استيفاني أن تجد السعادة إلى جوار زوجها الذي كان يحبها ويعطف عليها، ولكنها ترملت في عام ١٨١٨ وكان شقاؤها عظيماً بفقدانها لجميع أولادها الذكور.

لقد كان لدى نابليون هوس لتزويج الناس!.. ونادراً ما نجحت الزيجات التي تسبب في عقدها، وربما كان زواج أوجين دي بوهارنيه من أوجستا أميرة بافاريا هو الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة!

فتاة من برلين

احتفل بزواج استيفاني في بداية شهر أبريل من عام ١٨٠٦. وفي ٢٥سبتمبر من نفس العام، غادر نابليون قصر سان كلو وانتقل إلى مدينة مايونس في ألمانيا. ولاحظ الجميع أنه كان "منشغلاً بمزاجه انشغالاً كبيراً"، وكان نابليون قد أصبح رجلاً بديناً في السابعة والثلاثين.

وفي ١٤ أكتوبر، انتصر قائد دافوفي في معركة أورستادت، وانتصر في معركة يينا، ولكن كان يجب عليه – بعد هزيمة جيش بروسيا – احتلال هذه البلاد وانتزاع حصونها، ولذلك بدأ حملة عسكرية جديدة مع الروس حلفاء البروسيين.

ودخل نابليون مدينة برلين في ٢٧ أكتوبر، وأقام بها حتى الخامس والعشرين من نوفمبر. ولم يحرم نفسه أثناء هذه الفترة من المواعيد الغرامية، ويبرهن على ذلك بوضوح المبالغ المرصودة في دفاتر حسابات مصاريف الخاصة. وهناك أيضاً مشتريات لغراميات طارئة مع سيدات من برلين وصلت قيمتها إلى خمسة عشر مليوناً من الفرنكات. ومن مغامراته العاطفية في ذلك الحين، مغامرة مشهورة تحدث عنها نابليون نفسه عدة مرات؛ فقد حدث أثناء استعراض عسكري كبير في برلين، أن اقتربت من نابليون فتاة شابة وبصحبتها سيدة متقدمة في السن إلى حد ما.. قدمت الفتاة شكوى مكتوبة إلى الإمبراطور. ولما عاد إلى قصره قال يخاطب خادمه كونستان:

- اقرأ هذا الطلب، وستجد فيه عنوان السيدتين اللتين قدمتاه، ثم اذهب إليهما لتعرف من هما وماذا تريدان..

وقرأ كونستان الورقة، ثم قال:

- إن الفتاة تطلب شرف المثول بين بدى الإمبراطور لحديث خاص..

وأمره نابليون الذهاب لإحضارها على الفور، وذهب الخادم إلى هناك، فوجد المرأتين تنتظران..

كانت الفتاة آنسة في حوالي السادسة عشرة من عمرها، وكانت لا تعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية أو الإيطالية.. ولم يكن الخادم يعرف غير هاتين اللغتين.. ولكن السيدة العجوز وهي والدة الفتاة كانت تعرض بعض كلمات فرنسية، ولكنها كانت كافية للتفاهم..

وذكرت السيدة للخادم أنها أرملة ضابط بروسي، وأنها تأمل في أن يستقبل الإمبراطور ابنتها، ولكنها ترغب في أن تحضر المقابلة بينهما..

وحاول الخادم أن يبين للمرأة أن "الحديث" يخص ابنتها وحدها، وأن تقاليد "البروتوكول" لا تسمح بوجودها، ولكنها أصرت على رأيها، وأخيراً لم يجد مناصاً من أن يعود إلى سيده ويخبره بما حدث.. وأمره نابليون بأن يحضرهما معاً في إحدى العربات، وجاءت الفتاة ووالدتها في العاشرة مساء عند قاهر بروسيا..

واستطاع الخادم أن يحتجز الأم في أحد مكاتب القصر، واصطحب الابنة لمقابلة سيده..

وكان انتظار الأم طويلاً، فقد احتفظ نابليون بالفتاة الصغيرة شطراً طويلاً من الليل على خلاف عادته، ويرجع ذلك إلى أن الطرفين لم يكن في وسعهما التفاهم إلا بالإشارات.

وفي الصباح، نادى نابليون على خادمه الخاص وأمره بإحضار مليون ونصف مليون من الفرنكات. وسلم الإمبراطور المال بنفسه إلى الفتاة البروسية الجميلة، التي فرحت به أيما فرح.. وعادت الابنة إلى أمها، وأوصلهما كونستان حتى مسكنهما.

وبعد عودة كونستان، قص عليه نابليون كيف أن خلوته مع هذه الفتاة الجميلة كانت خلوة ممتعة، وكيف أنها كانت تقول له من فرط سرورها: "يا لك من شقي!.. يا لك من شقي!".

وكانت ثمة ذيول لهذه المغامرة القصيرة؛ فقد أصبح لهذه الفتاة عشاق آخرون من بعد بونابرت، وكان من بينهم ضابط فرنسي جعلها تتعلق به، واصطحبها معه إلى باريس. وهناك، انتهى أمرها إلى العمل في منزل بدار للدعارة.. وذات يوم، هربت الفتاة من المنزل، والتقت بكونستان مصادفة في شارع ريشيليو فقصت عليه ما صادفته من كوارث بلغة فرنسية سليمة، واختتمت حديثها معه قائلة:

– ذكره بي.. لقد وعدني عشر مرات بأنه سوف يراني مرة ثانية، وأنه لن ينساني أبداً!

ولكن الوقت كان قد فات، فقد كانت علاقات فتاة برلين بضباط جيش نابليون كافية لأن تبعده عنها إلى الأبد!

غرام نابليون بالكونتيسة البولندية

ماري فاليفسكا

غادر نابليون برلين إلى مدينة يوزنان في بولندا، ثم ظهر في وارسو لمدة يومين أو ثلاثة خلال شهر ديسمبر عام ١٨٠٦. وفي نهاية هذا الشهر، توجه إلى مدينة بولتوسك ومنها عاد إلى وارسو مرة أخرى في أول يناير عام ١٨٠٧، في الساعة الثامنة مساء..

وكانت إقامة نابليون في العاصمة البولندية إقامة ساحرة بالنسبة له، ولضباط أركان حربه على السواء، فقد كانت حياتهم هناك، تشبه حياتهم في باريس، زاخرة بحفلات الاستقبال والحفلات الراقصة والموسيقية. وكانت هناك غراميات لمعظم ضباط أركان حرب الإمبراطور القاهر.. أما بالنسبة له، فقد بدأت حينذاك علاقته الشهيرة بمدام فاليفسكا، وهي العلاقة التي دامت بضع سنين.

وقد ذاعت أساطير عديدة حول قصة غرام بونابرت بهذه السيدة الجميلة التي كانت له بمثابة الزوجة البولندية.. ومجَّد الرواة هذه الشابة الحسناء، قال بعضهم كانت ضحية لزوج شيخ كريه، وقال آخرون أنها بطلة وقال قائل آخر بأنها مثل أعلى للفضيلة والحب والإخلاص.

والواقع أن حقيقة أمرها ليست معروفة على وجه التحديد، فإن تاريخ علاقتها الغرامية بنابليون لم يعرف حتى الآن، وهو لا يزال موضع بحث من المؤرخين. وهناك ثلاثة مصادر رئيسية بخصوص هذه العلاقة: اعترافات ماري فاليفسكا بطلة القصة، وروايات الكونت بونيا توفسكي،

وأحاديث نابليون نفسه. وتختلف هذه المصادر فيما بينها اختلافاً كبيراً، وأطولها هي اعترافات ماري فاليفسكا، في حين كانت تصريحات نابليون أقصرها.

* * *

كانت الكونتيسة ماري فاليفسكا في الواحدة والعشرين من عمرها حينما وصل نابليون إلى وارسو، وكانت في ذلك الوقت زوجة وأماً. والكثيرون من الرواة يحاولون تجاهل هذه الحقيقة الأخيرة..

ولدت ماري في بلدة لا كزينسكا من والد نبيل فقير كان رباً لأسرة كبيرة العدد تتكون – عدا زوجته – من أربعة أولاد وبنتين! وتلقت ماري علومها الأولى على يدي شيخ نبيل كان أحسن حالاً من والدها. ولما شبت عن الطوق، ألحقها والدها بإحدى المدارس الداخلية في الإقليم، وأخيراً ذهبت لتتلقى العلم في وارسو..

وقد نشأت ماري تتحدث اللغة الفرنسية والألمانية، وترقص الفالس والمازوكا البولندية، ولم تكن تحب الحياكة أو أشغال الإبرة، وإنما كان كل اهتمامها موجهاً للقراءة والموسيقى وركوب الخيل.. والمرء لا يملك إلا أن يعجب بوالدتها التي استطاعت رغم حياتها المثقلة بالديون والرهونات أن تربي أولادها هذه التربية الممتازة!

ولما عادت ماري إلى منزلها – وهو قصر قديم تملكه الأسرة – في بلدة كيرنوزيا، استقبلتها والدتها قائلة: "لقد أصبحت ماري شابة جميلة.. فليتكرم الله ويرزقها سريعاً بزوج طيب، فسوف يخفف هذا من وطأة الحياة علينا".

وكان للأسرة جار ثري من النبلاء من ذوي النفوذ يدعى الكونت "فاليفسكي" كان يذهب إلى الكنيسة في أيام الآحاد تحيط به حاشية كبيرة، وكثيراً ما كان يقيم حفلات للرقص والاستقبال يدعو إليها الأصدقاء والأتباع.

ولم تضع الأرملة لاكزينسكا والدة ماري وقتاً، فاصطحبت ابنتها إلى الكنيسة. وهناك، حدث ما كانت تسعى إليه، ودعاها الكونت هي وابنتها لتمضية يوم في قصره..

وذهبت الفتاة مع والدتها إلى قصر فاليفسكي، وأخذت الأم تطري جمال ابنتها وصفاتها على مسمع من الكونت، ودفعتها إلى أن تعزف له على البيانو، وكانت تريد بذلك أن تجذب اهتمامه إلى الفتاة الشابة بأي ثمن..!

وعزفت ماري كل ما حفظته من مقطوعات، وأضافت الأم بعد أن فرغت الفتاة من العزف أن ابنتها ممتازة في الرقص كذلك. واسترعت عبارة الأم انتباه الكونت، فقال فجأة وكأنه تذكر شيئاً:

– آه! هل توافقان إذن على الحضور إلى حفلة الرقص التي سأقيمها عندي؟

فقالت الأم – على الفور – في حماس:

– بالطبع يا سيدي الكونت.. فمن واجب الأثرياء من السادة الأشراف أن يدعوا جيرانهم الفقراء من أمثالنا.. إن هذا يسهل على الأمهات إظهار فتياتهن..

وحدد موعد الحفل في يوم الأحد التالي.

وعادت الابنة ووالدتها إلى منزلهما، ومعهما حمل كبير من الحلوى والزهور.. وقالت الأم تحدث الفتاة أثناء الطريق:

– إن في وسعك أن تصبحي الكونتيسة فاليفسكا!

فأجابت الفتاة قائلة:

– آه!.. كلا.. فليحمني الله من ذلك يا أماه!

وتلقت الفتاة صفعة قوية على وجهها؛ فما كان منها إلا أن أكملت بقية الطريق إلى البيت صامتة لا تنبس ببنت شفة!

وفي يوم الأحد التالي، رافقت ماري والدتها إلى الحفل الذي أقامة الكونت تكريماً لها..

كان الكونت فاليفسكي في السابعة والستين من العمر، وكان زوجته قد ماتت منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.. وفي الموعد المحدد، وقف ينتظر ماري في فناء القصر وهو يرتدي ملابسه الرسمية ذات الأوسمة العديدة، ويمسك بيده باقة كبيرة من الأزهار.

وأثناء الحفل، قدموا لها أحد النبلاء الروس، وأخبروها بأنه يتحرق شوقاً لرؤيتها.. وأعجبت ماري أيما إعجاب بهذا الشاب الوسيم على الرغم من أن البولنديين كانوا لا يحبون الروس.. وتبعاً للتقاليد البولندية حينذاك، لم يكن في وسع ماري أن تتزوج من رجل روسي أو بروسي، ومن ثم فقد رفضت هذا الشاب حين تقدم يطلب يدها في اليوم التالي.

وكان الكونت فاليفسكي قد ذهب مع الشاب الروسي يؤازره في طلبه، فلما رأى رفضها له ذهب يطلب يدها لنفسه في اليوم التالي.

ووضعت الأم ابنتها – بعد رحيل الكونت – أمام أمرين لا ثالث لهما: فإما الزواج من الشاب الروسي، وإما الزواج من الكونت الشيخ. واختارت ماري الشيخ البولندي.!

وعقب موافقة ماري على هذا الزواج، وقعت فريسة حمى شديدة جعلتها بين الموت والحياة لمدة ثلاث أسابيع. ولما عادت إلى وعيها، وجدت الكونت فاليفسكى واقفاً إلى جوار فراشها، فأصيبت بنكسة جديدة تسببت في تأخير حفل الزواج مرة أخرى. ثم انتهى كل شيء كما أرادت والدتها، وبذلك أصبحت ماري لاكزينسكا، الكونتيسة فاليفسكا..

وكان الكونت فاليفسكي رجلاً ممتازاً، فلم يتوان عن مصارحة زوجته بأنه لم يعد في سن تتيح له أن يبادل الحب فتاة شابة مثلها، وأنه يقنع بأن تبادله الصداقة والثقة. وكان الرجل شهماً كريماً، فلم يكتف بأن هيأ لزوجته مركزاً مرموقاً، وإنما أخذ ينفق على الوالدة وأولادها، وهكذا تحسنت حالتهم منذ ذلك الحين تحسناً ملموساً!

* * *

وعاشت ماري هكذا ثلاث سنوات أصبحت خلالها أماً، ويدل ذلك على أن الكونت لم يكن هرماً ميئوساً منه كما صورته كثير من الروايات.. كانت ماري قصيرة القامة، لها فم جميل وعينان ساحرتان. وكان شعرها كستنائياً فاتحاً. ولم يكن جمالها من نوع نادر المثال، ولكنها كانت تتمتع بقسط وافر من الجاذبية والرقة والنعومة. وكانت ابتسامتها اللطيفة، ونبرات صوتها الساحرة، وعذوبة حديثها.. كل ذلك كان يمتزج بشيء من الاعتدال في الزينة والبساطة في الحركات..

ولما بدأت حملة نابليون ضد بروسيا في نهاية سبتمبر عام ١٨٠٦، اقترح فاليفسكي على زوجته الرحيل إلى وارسو لقضاء فصل الشتاء هناك. واشترى الكونت منزلاً جديداً، أثثه تأثيثاً فاخراً كي يجعل من صالون الكونتيسة فاليفسكا ندا لأحسن صالونات وارسو.

كانت زيارة نابليون الأولى للعاصمة البولندية زيارة قصيرة، ولكنه ما أن عاد إليها في أول يناير عام ١٨٠٧، حتى كان كل شيء قد أعد لاستقباله استقبال الفاتحين. ولما علمت ماري – السيدة الوطنية المتحمسة – بوصول نابليون قاهر بروسيا عدوة بولندا اللدود، قررت أن تخرج لاستقباله، مثلها في ذلك مثل كل البولنديين الذين خرجوا للقائه إن طوعاً أو كرهاً، والذين يقيمون على طول الطريق الذي سيأتي منه الزائر العظيم، وخرج مع هؤلاء عدد من سكان مدينة وارسو..

أمرت ماري بإعداد عربة ذات أربعة خيول، ركبت فيها سراً مع إحدى بنات عمومتها، وكان المنادون يعلنون في كل مكان أن نابليون يقترب من مدينة بلوني، فأصدرت أمرها للحوذي بأن يتجه بسرعة إلى بلوني.. وعند أبواب المدينة، غادرت السيدتان العربة واختلطتا بالجمهور، وكان الزحام شديداً يكاد يخنق الأنفاس!

واستولى اليأس على نفس ماري، إذ كيف سيتسنى لها أن تراه وسط هذه الحشود الهائلة من الناس؟.. لقد كانت روحها تكاد تغلي من فرط الحماس.. ألم يحارب نابليون بروسيا، وغدا سيحارب روسيا أيضاً، وكل ذلك من أجل إعادة تكوين دولة بولندا؟ ولكن ها هو ذا يصل.. نعم، إنها عربة البطل!

وبلغ اليأس من نفسها أقصاه، فقررت أن تفعل أي شيء.. وفي هذه اللحظة، وقع بصرها على ضابط من الجيش بدا لها أنه من كبار رجال حاشية نابليون، فأخذت تصيح في عنف كي تلفت نظرة إليها. ولما نجحت أخيراً في إثارة اهتمام الضابط، صاحت تقول على الفور: "آه! خذنا من هنا يا سيدي.. إنني أريد أن أراه لحظة واحدة!.. لحظة واحدة فقط!".

ولم يتمالك الضابط من فرط ما لمس من حماسها وحرارة لهجتها، إلا أن يمسك بها من يدها ويخرجها من وسط الزحام. ولشد ما كانت دهشتها حينما وجدته يتجه مباشرة نحو باب عربة نابليون!

قالت ماري في انفعال وتأثر كبيرين:

– مولاي!.. أنظر كم من الصعاب تحملتها من أجل رؤيتكم..

ورفع نابليون قبعته محيياً، ثم انحنى نحوها وتمتم ببضع كلمات لم تسمعها ماري من فرط الانفعال، بينما استمرت في حديثها الذي كانت قد أعدته قائلة:

– مرحباً بك ألف مرة في بلادنا!.. إن كل ما نفعله لا يمكن أن يعبر عن عمق المشاعر التي نكنها لشخصكم، وأنتم تطأون أرض هذا الوطن الذي ينتظركم لينهض من كبوته..

وكانت ماري – كما ذكرت في اعترافاتها فيما بعد – فريسة للهذيان، وهي تنطق بهذه الكلمات التي كانت تضطرم في نفسها، وأضافت تقول في هذه الاعترافات: "لست أدري كيف استطعت أن أفعل ذلك على الرغم من خجلي الطبيعي!".

ولم يفت نابليون أن يعبر عن إعجابه بالسيدة الشابة الجميلة، فقدم لها باقة من باقات الزهور التي كانت تملأ عربته، وقال:

– احتفظي بهذه الزهور عربوناً على نياتي الطيبة، وأتعشم أن أراك في وارسو.. إنني سأطالبك بشكر يصدر من ثغر الجميل!

وعاد الضابط الكبير بسرعة إلى مكانه بجوار نابليون، وأخذت العربة تبتعد رويداً رويداً، والبطل لا يزال يلوح بقبعته للسيدة البولندية.. أما ماري، فقد تسمرت في مكانها، وراحت تتابع العربة بنظرها حتى اختفت في آخر الطريق. واضطرت ابنة عمها أن تتدخل "لتعيدها إلى نفسها".. وأخيراً حملت كنزها الثمين من الزهور وعادت إلى بيتها. وكان الوقت متأخراً، فنامت على الفور من فرط السعادة والإرهاق..

* * *

أقام نابليون في وارسو، ولما لم تهرع إليه السيدة البولندية في الموعد المحدد الذي ضربه لها، أصدر على الفور أوامره للشرطة بالبحث عنها.. وبحثوا عنها في كل مكان دون جدوى. وأخيراً لجأ إلى كل أعيان العاصمة ولاسيما الكونت بونياتوفسكي الذي سيجعل منه ماريشالا فيما بعد.. وكان لذلك الكونت عشيقة فرنسية تدعى هنرييت بوجيه، وكانوا يدعونها بمدام فوبان. وكانت مدام فوبان هذه تعرف عائلة لاكزينسكي منذ زمن طويل، ولاسيما ماري. وعن هذا الطريق عرفوا أن السيدة المجهولة هي الكونتيسة الشابة ماري فاليفسكا.

إن ماري نفسها هي التي قصت علينا كل ما قلناه تقريباً حتى الآن، وذلك أنها حاولت حينما أهملها نابليون بعد سقوطه – وحتى قبل

أن يسقط – أن تدافع عن نفسها، وأن تجمع الحجج والاعتذارات لتبرير موقفها أمام أهلها وبلدها، لأنها كانت حينذاك قد أدركت سقطتها. وهي تقص كيف أنها استسلمت آخر الأمر بعد مقاومة طويلة.. وأفاضت في ذكر التفاصيل بشيء من التزييف، كما يحدث عادة في مثل هذا النوع من الدفاع عن النفس، وهو دفاع طبيعي ومشروع على أية حال. إنها تظهر نفسها وكأنما قد ضحي بها في سبيل قومها.. وهي تبين لنا أيضاً أنها كانت نتيجة مدام فوبان، المرأة الخبيرة، وهي الصبية الساذجة التي كانت في الثامنة عشرة من عمرها!.. ولكنها كانت في الواقع تعرف جيداً من هي مدام فوبان هذه، وتعرف أنها كانت عشيقة ليونياتوفسكي، فضلاً عن أنها كانت حينذاك أما وفي الحادية والعشرين من عمرها.. ولكن لندع كل ذلك ولنمض في قصتنا..

ها هو الكونت بونياتوفسكي يقف أمام ماري، ويحكي لها شوق نابليون المبرح إلى لقائها.. وألح عليها الكونت أن تحضر حفلاً كبيراً راقصاً كي يتأمل ضيوف الإمبراطور أجمل زهرة في أرض بولندا.. قال بونياتوفسكي:

– هيا.. هيا.. دعك من هذا التواضع.. لا تحاولي أن تخفي انتصارك الكبير، فقد انكشف سرك..

وقاومت ماري، وأخبرت بونياتوفسكي بأنها تترك نابليون لمن تردنه من النساء الأخريات اللاتي هن أكثر جدارة به منها، ولكنه أجابها قائلاً:

– إن المسألة لا تتعلق أبداً بجدارة النساء الأخريات.. إنه يفضلك أنت، ولا يريد أحد سواك؛ فاستخدمي إذن كل وسائل الإغراء.. إنني أتوسل إليك أن تضحي بنفسك قربانا للوطن.. هيا وسنسير جميعاً من خلفك ومن يدري؟ لعل السماء قد أرسلتك لجمع شمل الوطن وإعادة بنائه من جديد!

وأصرت ماري على الرفض، وألح عليها أشخاص آخرون من كبار شخصيات المدينة. وأخيراً تنازلت ووافقت على الذهاب إلى الحفل بعد أن أصبحت المسألة وكأنها مطلب شعبي!

وارتدت ماري ثوباً ومعطفاً من الحرير الأبيض، ووضعت على رأسها تاجاً من الأزهار.. وعاونها زوجها نفسه في "إعداد زينتها"، فقد كان يخشى أن تصل متأخرة فتجد نابليون قد غادر الحفل..

ووصلت ماري إلى المكان، وسارت بين جموع كبيرة من الضيوف منتشرة هنا وهناك في الصالونات. واستطاعت أن تسمع همسات الإطراء تنبعث من كل مكان. وأخذ الناس يسألونها عن سبب التأخير. وأخيراً أوقفوها بين سيدتين لم تكن تعرفهما..

وتسلل بونيافسكي إلى جوارها على الفور، وهمس في أذنها قائلاً:

– إنه كان ينتظرك بفارغ الصبر، وسر أيما سرور حين رآك تدخلين.. لقد جعلنا نردد له اسمك مراراً حتى حفظه عن ظهر قلب. إنه تفحص زوجك ملياً، ثم هز كتفيه وقال: يا للضحية المسكينة! والتفت إلي ثم أصدر لي أمراً بأن أدعوك للرقص..

فقالت:

– إنني لا أرقص، وليست لدي أية رغبة في الرقص.

فقال بونياتوفسكي في دهشة كبيرة:

– إنه أمر يا سيدتي.. وليس في وسعك أن تهربي منه!

فقالت ماري وهي تضحك:

– أمر؟!.. وهل يرقص الناس أيضاً طبقاً للأوامر؟ كلا.. كلا.. إنني لست دمية حتى تجعلوني أدور وفق مشيئتكم..

– كيف؟.. هل تتمردين بمثل هذه السرعة؟..

– نعم.. إنني أتمرد دائماً على الظلم، وعلى الطلبات غير المعقولة.

– ولكن ارفعي عينيك بحق السماء!.. انظري.. هل ترين أنه يراقبنا؟ أتوسل إليك..

– إنني لا أترك مكاني هذا مهما تكن النتائج.. هيا اذهب وقل له أنني لا أريد أن أرقص.

– لا شك أنك تمزحين يا سيدتي، فأنت لا تريدين إحراجي بالطبع!..

– إنك أنت الذي تسبب لي الحرج بإلحاحك هذا! أرجو أن تدعني شفقة بي، فالعيون كلها تتطلع إلينا..

واضطر الكونت أخيراً أن يبتعد.. وقص ما دار بينه وبينها على دوروك، الذي أخبر – بدوره – نابليون بما حدث..

وعقب انتهاء الرقص، نهض نابليون وأخذ يطوف بالقاعة في صحبة بونياتوفسكي، وكان يوجه لكل سيدة بالحفل عبارة أو كلمة لطيفة، ولكنه كان بادي القلق والانشغال. وسأل إحدى الآنسات عن عدد أولادها، وسأل امرأة أخرى عما إذا كان زوجها يغار عليها، واستفسر من سيدة بدينة عما إذا كانت تحب الرقص. وكان قلب ماري أثناء ذلك يدق فزعاً لأنه كان قد أصبح على قيد خطوات منها. وكانت نظراته التي لا تبارحها تجعلها "تنتفض من قمة رأسها إلى أخمص قدميها". ولما صار نابليون أمامها، غضت من بصرها، ولكنها سمعته يقول لها:

– إن الأبيض لا يتفق مع الأبيض سيدتي..

ثم أضاف يقول بصوت منخفض: "إن استقبالك لي ليس هو الاستقبال الذي من حقي أن أنتظره منك!".

ولكنها ظلت واقفة في مكانها جامدة كالتمثال، فلم تجب بحرف واحد أو ترفع إليه عينيها.. وظل يتأملها ملياً لحظة طويلة ثم ابتعد، وغادر نابليون القاعة بعد وقت طويل، وحينئذ أحست "بأن هما ثقيلاً قد انزح عن كاهلها".

* * *

وما أن عادت ماري إلى منزلها حتى قدمت لها الخادم خطاباً سرياً جاء فيه:

"إنني لم أر أحداً سواك، ولم أعجب إلا بك، ولا أرغب إلا فيك، وها أنذا أنتظر بفارغ الصبر رداً يهدئ من النار المستعرة في قلبي.. ن".

وثارت ماري لهذا الأسلوب الذي يعبر عن الرغبة في صراحة وعنف، فألقت الخطاب جانباً وظلت جامدة في مكانها، وقد استولت عليها دهشة كبيرة.. وصاحت الخادم تقول:

– هل تعرفين يا سيدتي من هو الشخص الذي ينتظر في الخارج؟ إنه الأمير بونياتوفسكي!

فأجابتها سيدتها قائلة:

– هذا لا يهم.. اذهبي إليه يا جولي وقولي له ألا ينتظر أي رد..

وعادت جولي بعد لحظة، وقد استولى عليها الذعر.. ولشد ما كانت دهشة سيدتها حين رأت الأمير يتبع الخادم، فأسرعت إلى غرفتها وأوصدت على نفسها الباب بالمفتاح، ثم صاحت من خلف الباب تقول للأمير بأن قرارها هذا قرار نهائي، وأنها ترفض الرد على الخطاب مثلما رفضت الرقص من قبل..!

ولكن بونياتوفسكي ظل واقفاً بالباب، يرجو ويتوسل إليها نصف ساعة كاملة. ولما لم يجد فائدة ترجى من وراء ذلك، رحل أخيراً وقد تملكه غضب شديد. وكتبت ماري تقول أنها ركعت حينئذ على ركبتيها تدعو الله أن يحميها من هذه التجربة المريرة، وأضافت قائلة: "إن نابليون لم يكن في نظري سوى تمثال كبير للعبقرية والآمال الوطنية وكنت أؤمن به وأعبده من بعيد، ولكنني كنت أخشاه وأهرب منه عن قرب".

ولما استيقظت ماري صباح اليوم التالي، وجدت خطاباً آخر ينتظرها، ولكنها لم تفض الخطاب، وكان كل ما فعلته أن ضمته إلى

سابقه في مظروف واحد، وأمرت الخادم بتسليمه إلى الرسول.. وذلك دون أن تكتب على الغلاف حرفاً واحداً!

ونحن هنا أن نلفت نظر القارئ إلى أن مدام فاليفسكا لم تخبر زوجها والد ابنها بأمر هذه المناورات المفضوحة التي كانت تتعرض لها. وفي نفس اليوم الذي تلفت فيه ذلك الخطاب الأخير، عارضت زوجها معارضة شديدة ورفضت أن تظهر في الصالون لتقابل بعض الشخصيات المهمة وكان من بينها دوروك. لقد كان من الميسور أن تعيد الهدوء إلى نفسها بأن تصارح زوجها بأنها محط رغبة من نابليون، وتواطؤ من رجال لا تهمهم مصلحة بولندا في قليل أو كثير، وإنما يبذلون كل جهده لتملق الإمبراطور وإرضاء نزواته..

وطلب منها زوجها – الذي لم يكن يعرف شيئاً عن هذه المناورات – أن تذهب إلى حفل للعشاء سيحضره الإمبراطور. ورفضت ماري وهي مستمرة في إخفاء الحقيقة. وأخيراً، وبعد إلحاح شديد من جانبه قبلت طلبه وهو تقول: "لتكن إرادتك إذن هي النافذة!".

وبعد قليل من الوقت، أعادوا إليها الخطاب الثاني الذي لم تكن قد فضته. وفي هذه المرة، فتحت الخطاب وقرأت به ما يلي:

"هل أغضبتك يا سيدتي؟.. ومع ذلك، كان لي الحق في أن آمل في أن يحدث العكس.. أن شغفي بك يزداد في الوقت الذي يقل فيه اهتمامك.. إنك تنتزعين الراحة من قلبي المسكين، فامنحني هذا القلب الذي يعبدك بعض السعادة والسرور.. هل الحصول على رد منك صعب إلى هذه الدرجة؟.. إنك مدينة لي بردين!".

وما كادت تنتهي من قراءة هذه الورقة حتى دخل عليها زوجها، ولم تفكر في أن تطلعه عليها مع أنها كانت تستطيع أن تفعل ذلك بكل سهولة..

وفي اليوم التالي ذهبت إلى الحفل، وكان مكانها في مواجهة نابليون، وإلى جوار دوروك الذي ظل يهتم بها طيلة فترة العشاء.. وقال دوروك يسألها:

– لماذا فتر حماسك؟.. هل هناك زوج يغار عليك؟

ودافعت ماري عن زوجها الكونت، وقالت أن شعورها الوطني فحسب هو الذي جعلها ترتمي في طريق نابليون فهي تريد "أن يكون لابنها وطن". وعقَّب دوروك على ذلك بقوله:

– إن نجاح هذا الأمر يتوقف عليك وحدك يا سيدتي، ولكنك تلفظين النعمة.. أطلبي أي شيء وسوف يجاب طلبك!

كان نابليون يراقبها طيلة الوقت، وكان يرسل إليها خفية أشارت تدل على ولهه وفقدان صبره، فيترجم لها دوروك معنى هذه الإشارات. وفي هذه اللحظة، وضع نابليون يده على العروة اليسرى لسترته "واحتار دوروك في فهم معنى هذه الإشارة" –كما قالت ماري فيما بعد – ولكنه ما لبث أن صاح يقول فجأة وقد أدرك ما يعني نابليون:

– آه!.. وماذا فعلت بباقة الأزهار؟

فأجابته ماري تقول:

– إنها باقة ثمينة بالنسبة إلي، ولذا تجدني أحافظ على كل زهرة فيها؛ فهي ميراث أحتفظ به لولدي..!

فقال دوروك:

– آه!.. تنازلي يا سيدتي واسمحي بأن نقدم لك أزهاراً أكثر جدارة بك..

فقالت بسرعة وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل:

– إنني لا أحب شيئاً قدر حبي للزهور..

فقال دوروك وهو ينظر إليها في دهشة:

– حسناً.. إننا سنجني تواً أكاليل ألغاز من بلادك ونقدمها هدية لك..

فقالت ماري:

– آه! إذا كنت تعني بولندا يا سيدي المارشيال، فهي باقة الأزهار التي نطمع فيها جميعاً..

وعندما غادر نابليون المائدة، اقترب منها وقد بدت في عينيه نظرة ملتهبة، ثم أمسك بيدها وضغط عليها في عنف، وقال بصوت منخفض: "كلا!.. كلا.. إن هاتين العينين الجميلتين الحنونتين، وهذا العبير الطيب الذي يشع منهما، وهذا السحر، وتلك الجاذبية.. كل ذلك خليق بأن يجعل منك أكثر النساء ليونة ورقة، بدلاً من أن تستمتعي بتعذيبي هكذا..".

وانطلق نابليون في طريقه بعد هذه الكلمات القليلة يتبعه المدعوون.. أما هي، فقد ذهبت مع سيدة أخرى إلى حيث يقف بونياتوفسكي. وأحاط بها جمع كبير من الضيوف.. وقال لها بعضهم: "إنه لم يكن ينظر إلا إليك.. لقد كان هذا واضحاً تماماً!".

وفجأة، ظهر دوروك.. وقال لها في توسل وهو يجلس إلى جوارها ويضع خطاباً على ركبتيها:

– هل تستطيعين يا سيدتي أن ترفضي طلب من لم يرفض له أحد طلباً قط؟.. إن مجده محاط بالأحزان، وعليك يتوقف تبديد هذا الحزن.. لو هيأت له بضع لحظات من السعادة..

وأخفت ماري وجهها بين يديها، ولكن جارتها تدخلت قائلة وهي تنظر إلى دوروك:

– إن الصمت يعني القبول يا سيدي الماريشال.. طمئن صاحب الجلالة على أن العصفور البري الجميل سيكون حالاً رهن مشيئته.

كان الجميع يتدخلون في هذه المشكلة، وكانت هذه السيدة الأخيرة في خدمة أتباع الكونت بونياتوفسكي ومدام فوبان، وأيضاً صديقة حميمة لـ "ماري" على الرغم من ضعف أحلامها، ومع ذلك صاحت الكونتيسة الشابة قائلة:

– ماذا تقولين بحق السماء؟

فقالت الجارة:

– أقول ما كان يجب عليك أن تقوليه بنفسك.. إنني بولندية مخلصة، وأعتقد – مثل كل العقلاء المخلصين – أننا مهما فعلنا من أجل نابليون فإننا لن نوفيه حقه..!

وأضاف دوروك يقول وهو ينهض منصرفاً:

– أتوسل إليك يا سيدتي، وأتعشم أنك ستكونين أكثر رضا، بعد أن تقرأي هذه الرسالة.

وفتحت ماري الخطاب، فوجدت ما يلي:

"هناك لحظات يشعر فيها المرء بأن المجد عبء ثقيل على كاهله؛ فكيف ترفضين إرضاء حاجة ملحة للقلب الذي ينوء باعتبارات عليا تشل أعنف الرغبات؟ آه! لو أنك تريدين! إنك وحدك تستطيعين رفع حواجز الكلفة التي تفصل بيننا، وسيسهل لك صديقي دوروك كل شيء.. آه! تعالي! وسوف تنفذ جميع رغباتك، وسيكون وطنك أغلى عندي حينما ترحمين قلبي المسكين".

وجعلها هذا الخطاب الغريب تقول آخر الأمر: "حسناً.. افعلوا بي ما تشاءون!".

* * *

وفي المساء، فيما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة، سمعت ماري على باب بيتها طرقاً متفقاً عليه، فقالت لها صديقتها:

– هيا.. خذي هذه القبعة ذات الشبكة، والتفي جيداً بهذا المعطف. إنهم ينتظرونك عند ناصية الشارع، وقد أعدوا كل شيء بحيث لا يجرح إحساسك الرقيق.. هيا اتبعيني إذن..

كانت العربة تنتظر وبداخلها دوروك.. وركبت ماري وما هي إلا دقائق معدودات حتى كانت تجلس في مقعد وثير ونابليون يجثو عند قدميها.. ومع ذلك كانت تبكي في حرقة..!

وقال لها نابليون:

– إنك تكرهينني إذن.. لا شك أنني أسبب لك الفزع.. هل تحبين شخصاً أسعد حظاً مني؟.. آه!.. هيا تكلمي!.. تكلمي..

فقالت:

– كلا!.. ليس الأمر كذلك!.. إنني أخجل منك، ومن نفسي!

وانبرى نابليون يعطيها درساً في الأخلاق على طريقته الخاصة، وحاول أن يقنعها، وأخيراً قال لها:

– يا ملاكي العزيز.. هل يمكن أن تخجلي من عمل طيب؟ أنك تمنحينني السعادة!.. إنها لحظة من السرور!.. هل تعتقدين أنني سعيد أنا الذي يحسدني الجميع؟.. ألا يرضيك أنني هنا تحت قدميك أستجدي حبك وأتوسل إلى قلبك الصغير؟ إنني واثق من أنه ملك لشخص آخر، وإلا لما بكيت هكذا في حرقة.. ولكن الأمر لدي سواء مادمت أرى وجهك الجميل..

وحاول أن ينتزع منها منديلها الصغير الذي كانت تخفي به عينيها، فقالت:

– ارحمني يا مولاي!

فقال:

– لقد قيل لي أنك عصفور بري.. يا لك من ضحية مسكينة! فماذا عن زوجك العجوز؟.. كيف توصل إليك..؟

وما أن سمعته ماري يعرض بزوجها، حتى صاحت بصوت يختنق بالدموع، ونهضت من مكانها تريد الفرار. وكتبت تصف ذلك فيما بعد: "أحسست بأن ألف خنجر حاد تطعنني في قلبي؛ فقد كانت كل جريمتي تكمن في اسم زوجي الذي ذكرني به، وبدت لي هذه الجريمة واضحة بكل بشاعتها!".

ومكث نابليون ذاهلاً لتصرفها، ساكناً لا يأتي بحركة.. ولكنه صاح يسألها حينما رآها تتجه ناحية الباب:

– إنك إذن تكرهينني حقاً؟.. هل أثير إحساساً بشعاً في نفسك إلى هذه الدرجة؟!..

فقالت وقد طفرت الدموع من عينيها:

– آه!.. يا للسماء!.. هل تستطيع أي بولندية أن تكرهك؟ كلا، كلا.. إنني معجبة بك وأحبك؛ فأنت السند الوحيد لأعز آمالنا وأغلاها.. لقد عبرت لك عن ذلك في مدينة بلوني، ولم تغادر صورتك خيالي منذ ذلك الحين.. لقد صليت للسماء من أجلك.. آه!.. لماذا أعجز عن أن أصور لك حقيقة المشاعر المتصارفة في نفسي؟!

وأضافت تقول وقد تضاعفت دموعها:

– ولكن صدى هذا الاسم الذي نطقت به يتردد هنا في أعماق روحي كأنه الندم مجسماً

وأعادها نابليون إلى مكانها، ثم قال:

– حسناً.. بما أنك لا تكرهينني، فأنصتي إلي.. هل استسلمت بكل إرادتك لمن تحملين اسمه؟..

ولم تجب ماري، فأضاف يقول:

– هل قبلت أن تربطي مصيرك بمصيره حباً في الثروة أو الألقاب أو أي شيء آخر؟

فاندفعت تقول في حماس:

– كلا!.. آه!.. يا إلهي العظيم!.. إنني لم أعرف قط حب الثروة..

– أجيبي عن أسئلتي.. فلابد أن يكون هناك سبب غريب كي تتزوج شابة نضرة موفورة الجمال من شيخ هرم يكاد يبلغ الثمانين.. فإذا لم تكن الثروة أو الألقاب سبباً في هذا الزواج، فما الداعي لذلك إذن؟

فقالت وهي تنشج بالبكاء:

– لقد أرادت والدتي ذلك!

– آه!.. لقد فهمت!.. وأنت الآن تندمين؟

– يا مولاي.. إن من يجمعهما الخالق – عن طريق الزواج – لا يصح أن يفرقهما إنسان.. لقد قال ذلك أعظم المشرعين..

وضحك نابليون، وقد أثار اهتمامه هذا الكلام.. إنه سيقول لها فيما بعد حين يتذكر هذا اللقاء: "هل تعرفين أنه لولا وجهك الطاهر، والدموع الغزيرة التي تنمهر على خديك، لما صدقت كلامك.. بل ولاعتقدت أنك امرأة لعوب تحاول التغرير بي؟".

وسألها نابليون عن تربيتها الأولى، وعن حياتها في الريف، وعن اسمها الذي أطلق عليها عند تعميدها.. وفي الساعة الثانية، سمع طرقا على الباب.. وصاح نابليون قائلاً:

– ماذا؟.. أترحلين بمثل هذه السرعة؟.. حسناً يا يمامتي الجميلة التي تستحق كل عطف.. جففي دموعك واذهبي لتستريحي ولا تخشي النسر(٧) بعد ذلك. فكل قوته وهي إلى جانبك تصبح حباً

---

(٧) اسم الكناية التي اشتهر به نابوليون.

خالصاً.. إنه حب يهدف اجتذاب قلبك قبل كل شيء.. إنك ستحبينه آخر الزمان.. هل تسمعينني جيداً؟

وعاونها على ارتداء معطفها ورافقها حتى الباب، وهنا أوقفها لحظة أخرى، وقال وهو يمسك بمقبض الباب:

– عديني بأنك ستعودين غداً، وإلا فلن أدعك تخرجين وأستولي عليك عنوة.. آه! فيم يهمني ما سيقول الناس عني آخر الأمر؟.. إنك بالنسبة لقلبي أثمن وأعز شيء أرغب في أن أغزوه!

ووعدته بذلك..

وأوصلها دوروك إلى منزلها حيث يقيم زوجها فاليفسكي، ووعدت دوروك بأن تتناول طعام العشاء مع نابليون في اليوم التالي..

* * *

ولما استيقظت في اليوم التالي، تلقت من نابليون خطاباً وعلبة مغلقة. وحينما فتحت العلبة، وجدت بداخلها عقداً من الماس وتاجاً مرصعاً بالجواهر، فألقت "بهذه المجوهرات بعيداً تريد أن تحطمها"، وفتحت الخطاب وقرأت به ما يلي:

"ماري.. يا حبيبتي الحلوة.. إن أول من أفكر فيه أنت، وأول من أرغب في رؤيته أنت.. إنك ستعودين، أليس كذلك؟ لقد أعطيتني وعداً بذلك، وإلا فسيطير النسر إليك!

"إنني سأراك على العشاء.. لقد أخبرني صديقي دوروك بذلك.

"فتنازلي إذن وتقبلي هذه الباقة من الزهور، واجعليها رباطاً خفياً يربط بيننا وسط هؤلاء الناس الذي يحيطون بنا.. إننا نستطيع عن طريقها

أن نفهم بعضنا بعضاً حينما نكون جالسين معهم. فحينما أضع يدي على قلبي ستعرفين حينئذ أنني مشغول بحبك.. وسوف تردين علي بأن تلمسي بيدك جواهرك هذه..

"بادليني الحب أيتها الحبيبة اللطيفة.. وأتمنى ألا تبارح يدك باقة جواهرك أبداً".

* * *

وتوجهت ماري إلى حفل العشاء دون أن تتحلى بهدية نابليون؛ فثار ثورة عنيفة، وحينئذ وضعت يدها – بغية تهدئته – على المكان الذي كان من المفروض أن يشغله عقد الماس. ولما رآها تفعل ذلك هدأ غضبه بعض الشيء، ثم لم يلبث كل شيء أن سار على ما يرام..

وبعد الانتهاء من تناول العشاء، كانت ماري في غرفة الإمبراطور، وتحدث معها نابليون – في بادئ الأمر – حديثاً طويلاً، وكان غاضباً إلى درجة أنه ألقى بساعته الثمينة على الأرض وحطمها بنعل حذائه. واستولى الذعر على ماري حينما سمعته يقول أنه سيحطم بولندا هكذا، وبذلك يمحو اسمها، وتتبدد جميع آمال شعبها، إذا ما رفضت ماري أن تمنحه قلبها وأن تقبل حبه!

وكتبت ماري تصف هذا المنظر الأخير:

"لنسدل الستار على هذا المنظر الذي أريد أن أمحوه من ذاكرتي في مقابل دمي وحياتي.. إنكم تعرفون أن هذا الرجل العجيب كان بركاناً ثائراً. لقد كانت عاطفة الطموح تسيطر عليه وتسيره .. وكانت عاطفة الحب عنده عنيفة جداً برغم أنها كانت قصيرة الأمد".

أما عن استسلامها لنابليون، فهناك روايتان حول هذا الموضوع، الأولى تقول فيها ماري:

"ولم أعد أستطيع التراجع، واضطررت إلى مواصلة السير في هذا الطريق الوعر الذي دفعني إليه حماسي الزائد، ومن ثم كانت التضحية أمراً مفروغاً منه". أما الرواية الأخرى فتقرر أن ماري قد فقدت وعيها من شدة الخوف أثناء هذا المنظر الدرامي الذي مثله نابليون أمامها، فانتهز الفرصة واعتدى عليها.. وعلى أية حال، كانت النتيجة واحدة، ولم يكن أمامها – على حد قولها – إلا أن تستمر..!

* * *

وأضافت ماري تقول في مذاكرتها:

"وأصبحت زياراتي له يومية منذ ذلك الحين..".

ولكن أصحاب الرواية الثانية يقررون أنها لم تغادر بيت نابليون منذ هذه الليلة، والأرجح أن هذه الرواية الأخيرة هي الصحيحة، إذ لم يكن في وسع نابليون أن يطلق سراح هذه الزوجة – تحت سمع وارسو وبصرها – بعد أن انتزعها هكذا من زوجها وطفلها.. فكر طويلاً.. وعلى أية حال، كان عليه أن يحاول إصلاح ما أفسد.. ولكن وا أسفاه!.. فإنه برغم الكرم العظيم الذي سيغمرها به لن يستطيع أن يمحو ذلك الخطأ الذي ارتكبه معها، ولا العذاب الذي تردت فيه هذه السيدة البولندية الشابة.

وكان الحديث يبدأ بينهما كل يوم عن بولندا، وسرعان ما يتحول هذا الحديث إلى أشياء تافهة.. ولاحظت ماري ميل نابليون لمعرفة

"الأشياء الصغيرة". فكان يحب مثلاً أن يستمع إلى شائعات الصالونات، وأن يعرف أسرار البيوت والعائلات. وكتبت في ذلك تقول:

"لم تكن الحياة الخاصة لأي شخص خافية عليه.. وكثيراً ما أثار في نفسي الدهشة بذكر تفاصيل كنت أجهلها تماماً عن الأشخاص الذين تربطهم به علاقة. وكنت أمزح معه بسبب هذا الميل، وأقول له إن أحداً لن يصدق قط أن أكبر رجل في عصره يسلي نفسه بمثل هذه الأشياء التافهة!".

* * *

وتنهي ماري اعترافها بوصف المشهد الذي حدث بينه وبينها حين صرح لها فجأة ذات يوم بأنه سيرحل.. تقول ماري:

"لقد ذهلت وانهرت تماماً حين أخبرني صاحب الجلالة بأنه راحل؛ فقد قال يخاطبني في ذلك اليوم:

– إنني سأرحل غداً يا ماري؛ فهناك مسئوليات جسيمة تنتظرني؛ فأنا مدعو لدرء العواصف التي توشك أن تهب على بلادي .. فهل ستحرمينني من سحر وجودك إلى جانبي؟.. ألست شيئاً يذكر بالنسبة لك؟

وانهمرت في البكاء وكدت أصيح قائلة:

– أنك ترحل دون أن تفعل لنا أي شيء!

ولكنني لم أستطع أن أقول إلا هذه الكلمات:

– ماذا سيصبح من أمري يا إلهي العظيم؟!

فقال محاولاً أن يطمئنني:

– إنك ستأتين إلى باريس يا حبيبتي، وسأجعل من دوروك وصيا عليك.. إنه سيرعى مصالحك، ويمكنك أن تلجئي إليه في جميع شئونك. وأنا واثق من أنه سينفذ لك كل طلباتك.. إلا إذا طلبت شيئاً مستحيلاً!

وكررت له أنني ليس لي إلا رغبة واحدة: أن يرد إلينا وطننا! قلت:

– لن تستطيع كل كنوز العالم أن ترضيني أو أن ترفع من احترامي لنفسي..

فقال:

– كلا يا ماري.. إن الأمور لن تسير هكذا، فأنا أعرف أنك تستطيعين العيش بدوني، وأن قلبك ليس ملكاً لي. نعم، إنك لا تحبينني يا ماري! إنني أعرف ذلك لأنك صريحة ولا تحبين الرياء. ومن أجل ذلك تجدينني مغرماً بك أكثر من أية امرأة أخرى.. إنك طيبة، جميلة، لك قلب طاهر نبيل، فهل تقدرين على حرماني من هذه اللحظات السعيدة التي أمضيها إلى جوارك كل يوم؟.. آه!.. إنني لن أعرف السعادة إلا عن طريقك. ومع ذلك، يظن الناس أنني أسعد رجل على ظهر الأرض!

"وحرك كلامه هذا الشفقة في قلبي فابتسمت ابتسامة حزينة.. ثم ألقيت بنفسي بين ذراعيه ووعدته بكل ما يريد".

وتضيف ماري في مذاكرتها:

"ورحل نابليون ليواجه المشاكل التي هبت في وجهه: الحصار القاري، ومشكلة حرب إسبانيا، والمؤامرات الإنجليزية التي يجب أن

يكتشفها، والنمسا التي يجب أن تقمع.. تلك هي المشاكل الكبرى التي كانت تشغل باله حينذاك".

ونحن هنا نقول لمدام فاليفسكا: توقفي قليلاً! .. ذلك أن اختلاقها للأحداث يبدو هنا واضحاً؛ فحقيقة الأمر أن نابليون لم يكن يحارب إسبانيا أو يقمع النمسا في عام ١٨٠٧، بل كان أمامه الروس الذين لم يكن قد هزمهم بعد. وهو سيفشل في أول محاولة لهزيمتهم في معركة أيلو، وستتلو ذلك فترة طويلة من الانتظار يعقبها انتصاره عليهم في معركة فريدلاند التي تبعتها معاهدة تليست. ولم يعد نابليون إلى باريس إلا بعد إبرام معاهدة السلام هذه، ولم تكن عودته بسبب موقف النمساويين والإسبان كما تدعي ماري!

ولكن ماري كانت تريد إخفاء حقيقة إنها لم تترك نابليون أثناء إقامته في وارسو طيلة شهر يناير عام ١٨٠٧. وقد حدثت معارك أيلو في شهر فبراير، وهي المعارك التي أرغمته على ترك إقامته المفضلة في العاصمة البولندية في ٣٠ يناير عام ١٨٠٧.

* * *

ورحلت ماري فاليفسكا في نفس الوقت، ولكن في اتجاه آخر.. رحلت إلى فيينا انتظاراً لأن يدعوها نابليون لتكون إلى جواره من جديد، وكان السفير الفرنسي في فيينا تحت تصرفها في كل شيء..

وبعد معركة أوسترو القصيرة التي لم تكن حاسمة، ذهب نابليون إلى قصر فنكنشتاين حيث أقام حتى السادس من يوليو انتظاراً لحرب

جديدة مع الروس. وتلقت منه ماري الخطاب التالي المؤرخ من مدينة أيلو في ٩ فبراير، أي في اليوم التالي للمعركة:

"يا صديقتي الجميلة.. أنك تعرفين عن الأحداث أكثر مما أستطيع أن أقول في هذا الخطاب.. لقد استغرقت المعركة مدة يومين مكثنا خلالهما مسيطرين على ميدان القتال.. إن قلبي معك، وإذا كان الأمر يتعلق بقلبي فحسب، فإنك لا شك ستصبحين مواطنة في دولة حرة..

"هل تقاسين مثلما أقاسي بسبب فراقنا؟.. إنني أقاسي لدرجة أنني أرغب في أن تعودي إلى وارسو، فأنت بعيدة مني أكثر من اللازم.. أحبيني يا عزيزتي الجميلة، وكوني واثقة من ناحيتي"

* * *

وأطاعت ماري وعادت إلى بولندا حيث اعتكفت مع والدتها في بلدة كيرنوزيا – مسقط رأسها – وكان هناك أيضاً لوماردا ضابط أركان حرب نابليون الذي كان شاهدا على عقد زواجه من جوزيفين. وكان لوماردا مكلفاً بالسهر على راحة ماري.. وكان دوروك دائم التنقل بين مركز القيادة العامة وبيت ماري في كيرنوزيا، وأخيراً لحقت ماري بنابليون وعاشرته معاشرة الأزواج في قصر فنكنشتاين، ولكن سرعان ما فرقت بينهما العمليات العسكرية مرة أخرى..

وفي ٢٦ مايو عام ١٨٠٧، كتب إليها نابليون يقول:

"لقد استسلم لنا حصن دانزج أيتها الصديقة الجميلة.. إنني أعرف أنك ستشعرين بالسرور لهذا الخبر. وأحب أن تعلمي أنني لم أنس

وعدي لك؛ فكوني سعيدة وهادئة لأن السحب ستنقشع، وسيرى كل منا الآخر في القريب العاجل.. تلك هي أعز أمنية عندي. ن".

وقبل انتصاره في معركة فريدلاند، كان يقيم في مدينة هايلزبرج، فكتب إليها في ١٢ يونيو عام ١٨٠٧ يقول:

"يا صديقتي اللطيفة.. إن الأمور تسير كلها كما سبق أن تنبأت. إننا نطارد جيوش الأعداء.. وتبدي الفرقة البولندية من ضروب الحماس والشجاعة ما ليس له نظير في التاريخ. إن لقاءنا الذي أتمناه من كل قلبي بات وشيكاً.. وحينئذ يستطيع كل منا أن يعيش من أجل الآخر.. حبيبك: ن".

وبعد الانتصار، أقام نابليون في مدينة تليست في المدة من ١٩ يونيو إلى ٩ يوليو. ومن تليست كتب يعدها مرة أخرى بأن يقابلها: "أنني سأرتب الأمر بحيث أراك في مكان ما.. كوني واثقة من ذلك".

ولكنه لم يرتب الأمر كما ذكر، ويبدو أنه عاد إلى فرنسا دون أن يراها مرة ثانية. ومن قصر سان كللو بجوار باريس، أرسل إليها الخطاب التالي المؤرخ في ٢٩ يوليو عام ١٨٠٧:

"عزيزتي الجميلة ماري.. في وسعك، أنت التي تحبين بلادك، أن تقدري مدى سروري بعودتي إلى فرنسا بعد أن غبت عنها عاماً كاملاً.. والشيء الوحيد الذي يقلل من سروري هذا الذي لست معي هنا.. ولكنك في قلبي..

"إن عيد ميلادنا يقع في أعياد السيدة مريم العذراء، وهو سبب خليق بأن يجمع بين قلبينا في ذلك اليوم.. إلى اللقاء يا صديقتي

الجميلة. إنك ستلحقين بي حينما تسمح الظروف بذلك، وسيكون هذا في وقت قريب. وأخيراً ثقتي التي لا تهدأ..".

ونستطيع أن نستنتج من هذا الخطاب أن ماري هي التي تمنت أن تتبعه فكتب إليها الخطاب السابق يطمئنها، ولكنه في نفس الوقت لم يكن مشغوفاً كل الشغف بالاجتماع بها من جديد.

* * *

ولم يستدعها نابليون إلا في أوائل عام ١٨٠٨ ثم أعادها إلى بولندا في بداية شهر إبريل. وكان يكتب إليها من مدينة بوردو، وأورفورت، وإسبانيا، ويرد كذلك على رسائلها.. وكانت تذكره دائماً بوعده لها. وأثناء ذلك أغدق نابليون من كرمه على شقيقها تيودور لاكزينسكي، فمنحه لقب كونت ورقاه في رتب الجيش. ومن أورفورت كتب إليها يطمئنها في ٢ أكتوبر عام ١٨٠٨، فقد كانت تشعر بالخوف على مستقبل وطنها، وتفكر فيما عسى أن ينتج عن اللقاء المنتظر بين نابليون وقيصر روسيا. وكتب إليها يقول:

"لقد قرأت خطابك بإمعان يا صديقتي الجميلة، وأنا أهتم كثيراً بكل ما تقولين عن ظروف بولندا الحالية.. فكوني على ثقة من أن شيئاً لم يتغير بخصوص مستقبل هذه البلاد.. ولا أحد يعارض هنا في ذلك. لا تعتذري لأنك لم تكتبي لي بما فيه الكفاية، بل لعل من الحكمة أن تتصرفي هكذا لأنني دائم التنقل.. وفيم تهم الكلمات؟.. إن جسدينا فقط بعيدان، وبرغم أنني أقاسي من ذلك، إلا أنني واثق من أنك لا

تهتمين بما هو جسدي. لقد أعطيتني روحك، وروحي ملك لك.. ثقي بعطفي الأبدي.. ن".

وفي نهاية هذا العام، كان نابليون في إسبانيا.. ولم يعد إلى فرنسا إلا في النصف الثاني من شهر يناير عام ١٨٠٩. وكان يكتب إليها كثيراً من إسبانيا وأعلن لها في إحدى رسائله الأخيرة من هناك نبأ انتصار جيشه في معركة سوموسييرا، حيث ضحى الفرسان البولنديون الذين انضموا للحرس تضحيات تفيض بشتى ضروب البطولة:

"يا صغيرتي ماري.. إنك تفكرين كثيراً، وهذا شيء قبيح جداً.. وأيضاً تنصتين إلى أناس يحسن بهم أن يكتفوا بالرقص في بولندا بدلاً من أن يهتموا بشئون هذا البلد. لقد ضيعت من وقتي ربع ساعة كي أشرح لك أن ما يبدو في الظاهر إجراءً غير ملائم، ستنتج عنه فيما بعد مزايا عظيمة.. أعيدي قراءة هذا الخطاب وسوف تفهمين كل شيء".

"وأخيراً أشكرك لتهنئتك إياي على انتصارك في سوموسييرا.. ويمكنك أن تفخري بمواطنيك الذين سطروا صفحة مجيدة من صفحات التاريخ.. سأكون قريباً في باريس، وإذا حدث وبقيت هنا مدة أطول، فربما تستطيعين الحضور.. كل أفكارك لك.. ن".

ويتكرر نفس الشيء، فهو لا يرغب أن تلحق به.. وعلى العكس من ذلك بدأت هي من ناحيتها تستعد للسفر بحماس كبير. وها هي ذي تكتب في مذكراتها فتقول: "سأعود إلى فرنسا!.. إنني أستعد للسفر بسرعة، ولدي مشغوليات كثيرة!.." ولكنها لم تسافر، فقد بدأت حرب رابعة بين نابليون والنمسا، ولن يقدر لها أن تراه إلا في فيينا.

وكان الأمير بونياتوفسكي ينهرها أحياناً لأنها لم تكن تكف عن التدخل في سياسة بولندا. وتوترت علاقتها ببونيانوفسكي.. ولا يستطيع المرء أن يغفل هذه العلاقة إذا ما أراد معرفة الحقيقة حول بداية علاقة ماري فاليفسكا بنابليون. وقد سبق أن ذكرنا أن مسئولية بوتياتوفسكي في ذلك ضئيلة للغاية، ولكن ماري حاولت أن تحمله مسئولية جسيمة..

وأحست ماري بصدمة لعدم سفرها إلى فرنسا؛ فنابليون لم يستدعها كل سبق أن وعدها، بل أن بالأحرى أمرها بأن تظل في بلدها.. ولما شكت من ذلك، كتب إليها من قصر شونبرون بالنمسا في ١٤ مايو عام ١٨٠٩ يقول:

"لقد وصلتك أخباري بانتظام، فلماذا كان يجب أن أخبرك أنه لا ينبغي أن تحضري؟.. ألم يكن ذلك كفيلاً بأن يسبب لك الألم؟..

"إن نداءاتك العديدة هذه طبيعية بالنسبة إلي، ومعلوماتك تفيدني كثيراً. وأعتقد أنك كنت شجاعة جداً بأقدامك على الذهاب إلى بونياتوفسكي في هذه الظروف؛ فصحيح أن الرئيس المسئول لا ينبغي أن يسأله أحد عمل يفعل. ويبدو لي أن هذا ما أراد أن يقوله لك.. فليلتف البولنديون إذن حول علم بلادهم، وليكفوا عن خلافاتهم، وهكذا يظهرون نصيبهم في تحرير أنفسهم.. ن".

* * *

في ذلك الوقت، كان النمساويون يثيرون القلاقل في وجه نابليون بهجومهم عليه في بولندا، فتبعت ماري الجيش البولندي الصغير الذي

احتل إقليم جاليسيا بأكمله بفضل مؤازرة نابليون. وفي مدينة كراكوف، تلقت منه خطاباً من قصر شونبرون مؤرخاً في ٢٠ يونيو!

"لقد سررت — كعادتي دائماً — بخطابك. ولست أوافقك تماماً على تتبعك للجيش حتى كراكوف، ولكنني لا أستطيع أن ألومك على ذلك.."

ولقد تحسنت مشكلة بولندا، ويمكنني أن أفهم ما شعرت به من قلق، ولذا فقد آثرت أن أعمل.. ألم يكن هذا خيراً من أن أكتفي بأن أغدق عليك المواساة؟ ولا يجب أن تشكريني، فأنا أحب بلادك وأقدر عدداً من مواطنيك حتى قدرهم..

"أن الأمر يتطلب أكثر من مجرد الاستيلاء على فيينا لإنهاء الحملة.. وحينما أنتهي من ذلك، سأعد الأمر بحيث أكون إلى جوارك أيتها الصديقة الجميلة. إنني أتحرق شوقاً إلى رؤيتك.. وإذا ما حدث ذلك في قصر شونبرون فإننا سنتمتع معاً بسحر حدائقه الرائعة، وننسى هذه الأيام الكئيبة.. ليكن لديك الصبر والثقة..".

ولما تلقت ماري خطابه المؤرخ في ١٤ مايو، كانت قد كتبت إليه برغبتها في اللحاق به.. وكانت من السذاجة بحيث اعتقدت أن استيلاءه على فيينا يعني القضاء على النمسا كلها قضاء مبرماً.. ومن هنا كان رده السابق الذي جاء فيه أن الأمر يتطلب أكثر من مجرد الاستيلاء على فيينا لإنهاء الحملة.. وفي ٦ يوليو، أحرز نابليون نصراً أكيداً على النمسا في معركة واجرام. وحينئذ يعترض على ذهابها إليه..

* * *

ووصلت ماري إلى النمسا في نهاية شهر يوليو، وعاشرها نابليون معاشرة الأزواج حتى شهر أكتوبر. ويعتبر هذا اللقاء من الأهمية بمكان، ذلك أن ماري قد حملت منه بمجرد حضورها. وأحضر لها نابليون طبيبه الأول كوفيزار خصيصاً من باريس ليشرف على صحتها، وكان هذا الحمل سبباً في تعقيد الموقف تعقيداً كبيراً، فقد كان الكونت فاليفسكي زوج ماري لا يزال على قيد الحياة. وكان لابد من أن تضع ماري فاليفسكا مولودها في بولندا كي ينتسب إلى آل فاليفسكي، ولم يخجل نابليون من إبداء رغبته في نسبة الطفل إلى النبيل العجوز.. وألحت عليه ماري كي يأذن لها بأن ترافقه إلى باريس، ولكنه ظل جامد القلب متمسكاً برأيه في أن تعود إلى وارسو..

وكان غرض نابليون واضحاً من إصراره على رحيلها، فهو في فرنسا يستطيع أن يفعل ما يشاء، وأن يجعل من أي رغبة له قانوناً مطاعاً، ولكن حينما يتعلق الأمر بسيدة بولندية، يصبح الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً لأنها من جنسية مختلفة. ومن ناحية أخرى، لو فرضنا أن نابليون وافق على منح اسمه لهذا المولود، فهو سيظل على الدوام ابناً غير شرعي. والشيء الذي يبعث علي الدهشة حقاً، إن ماري لم تتردد على موافقته على الرحيل.

* * *

وعادت ماري إلى بولندا، ولكنها لم تلبث أن وصلت فجأة إلى باريس حيث أقامت في منزل بشارع هوساي في حي نوتردام دي لوريت.

وكان نابليون يذهب لزيارتها في هذا المنزل، ويقدم لها الهدايا، ويصرح بأن المولود سيدعى ألكسندر إذا كان ذكراً، وأوجستين إذا كانت أنثى!

وفي اليوم العاشر من مارس عام ١٨١٠، تلقت ماري خطاباً من زوجها جاء فيه:

"زوجتي العزيز.. لقد أصبح قصر فالفيس حملاً ثقيلاً على كاهلي، وصحتي وسني يمنعانني من القيام بأي نشاط، فأتيت إلى هذا القصر مرة أخيرة كي أوقع على عقد ملكيته لابني الكبير.. وأنا أنصحك بأن تتفاهمي معه بخصوص الإجراءات التي يجب اتباعها بشأن الطفل الذي تنتظريه. وستكون هذه الإجراءات أكثر سهولة إذا ما ولد فاليفسكي الصغير هذا في قصر فالفيس.. ذلك هو رأي ابني الأكبر، وهو الذي أشار أيضاً بأن أكتب إليك. إنني أفعل ذلك وأنا أعي تماماً أني أقوم بواجبي، وأدعو الله أن يحفظك ويباركك. أنستار فاليفسكي"

يا له من شيخ رائع نبيل!.. ويا لها من رحمة ونكران للذات!

وأعدت ماري حقائبها على الفور، ويممت شطر بولندا.. وهناك، وضعت مولودها ألكسندر فاليفسكي في الرابع من مايو عام ١٨١٠.

* * *

وعادت ماري إلى باريس بعد ذلك بعدة أشهر حيث أقامت أولاً في شارع هوساي، ثم منحها نابليون بيتاً خاصاً في شارع لافيكتوار، وهو الشارع الذي اختاره لسكنى عشيقاته، وعلى الرغم من أنه كان قد طلق

جوزيفين في نهاية عام ١٨٠٩، إلا أنه لم يتزوج من ماري فاليفسكا كما كانت تتوقع، وإنما تزوج من الأرشيدوقة النمساوية ماري لويز.

وهكذا انتهت ماري فاليفسكا من حياته! فقد كانت الشهور تمر دون أن يفكر في الذهاب إلى رؤيتها، وهو الذي كان فيما مضى لا يستطيع أن يعمل دون أن تكون إلى جواره ليل نهار!.. وذات مرة، ذهبت إليه لترجو منه أن يتفضل بزيارتها، فوعدها بذلك، ولكنه لم يذهب إليها إلا بعد ثلاثة أشهر!

ولكنه لم يكن يبخل عليها بالمال، وكان دوروك تحت تصرفها على الدوام، يدفع لها ثمن مشترياتها وزينتها، ويسلمها في بداية كل شهر ثلاثة ملايين من الفرنكات، وهو مبلغ يعادل الآن ثلاثة آلاف من الجنيهات.. وكان مسموحاً لها بأن تدخل إلى البلاط وأن تتصل ببقية عشيقات بونابرت.

* * *

وفي عام ١٨١٢، حينما كان نابليون يقوم بحملته في الجبهة الشرقية وقد أوشك أن يهاجم روسيا، سبقته ماري فاليفسكا إلى بولندا مؤملة أن تعيش هناك إلى جواره.. وأخيراً لحقت به في مدينة فيينا. وكان نابليون لا يعترض على وجود النساء في هيئة أركان الحرب، ويوافق على أن يصحب الجنرال معه عشيقته إلى جبهة القتال.. ومع ذلك، فقد ترك ماري حينما توغل في الجبهة الشرقية، ولم يرسل لها خطاباً واحداً طيلة مدة الحملة!

وفي شهر ديسمبر، أنبأتها السفارة الفرنسية في وارسو بأن نابليون قد هزم، ووصل سراً إلى العاصمة البولندية، وأخبروها كذلك بأنه سيعرفها أين ومتى يمكن أن تراه..

وجاء نابليون بعد ظهر نفس اليوم إلى قصر فاليفسكي بصحبة دوروك.. وقال يخاطب ماري: "لقد كان من الضروري أن آتي لرؤيتك وأطمئنك على نفسي.. ومن ناحية أخرى أريد أن أرى هذا القصر الذي ولد فيه ابننا".

وقضى نابليون شطراً من الليل في قصر فاليفسكي، وقبيل الفجر جاء دوروك يقرع باب غرفة القائد الذي كان ينبغي أن يواصل رحلته في تكتم شديد. وودع نابليون الكونتيسة، بعد أن حثها على ترك بولندا التي لم تعد في مأمن من الجيش الروسي الزاحف. وقال لها نابليون: "عودي إلى باريس بأسرع ما يمكن".

* * *

وصلت ماري إلى باريس في بداية عام ١٨١٣وبدأ يتردد عليها واحد من أولئك الذين كانوا يبثونها حبهم، وهو الجنرال أورنانو ابن خالة نابليون. وكان أورنانو قد حصل من بونابرت على رتبة كونت وهو في الرابعة والعشرين من عمره، فضلاً عن راتب سنوي قدره ثلاثون مليوناً من الفرنكات.. وكان قد عرف ماري منذ بداية علاقتها ببونابرت، فأحبها بدوره وكان على استعداد لأن يختطفها منه.

وفي ١٥ أبريل عام ١٨١٣ غادر نابليون باريس في صحبة أورنانو؛ فقد كانت حملة ألمانيا على وشك أن تبدأ. وذهبت ماري في

اليوم السابق للرحيل لتوديع بونابرت في قصر سان كلو، فوجدت صالونات القصر وقاعاته مزدحمة برجال الحاشية، وانتظرت ساعة كاملة، ثم جاء نابليون وعبر لها عن دهشته لرؤيتها، لأنه كان يتوقع أن تأتي في الليلة السابقة. وأخبرته بأن أحداً لم يخطرها بذلك.. وحينئذ أجابها مازحاً:

– كلا، إنك لم تحضري أمس لأنك تعتقدين في الخرافات؛ فقد كان أمس يوافق يوم ١٣.

ورجته ماري أن يكون جاداً، وأن يتذكر أنه على وشك أن يبلغ الأربعين من عمره. وحينئذ أجابها قائلاً:

– إنني لم أشعر قط بأنني شاب كما أشعر الآن.. وسوف يراني الجميع في هذه الحملة، وأنا أهجم بقوة على الأعداء وأطعنهم بالسونكى!

فعقبت ماري قائلة:

– لقد حرم الله "الانتحار" بكل أنواعه..!

وقبلها نابليون هي وولدها ألكسندر، ثم أذن لها بالانصراف.. والواقع أنها لو لم تأت إليه، لما كلف نفسه عناء الذهاب لرؤيتها قبل سفره!

ولما عادت إلى منزلها "صلت من أجله وكذلك من أجل أورنانو الوسيم".

وبعد فترة من الوقت، علمت ماري بمصرع الماريشال دوروك الذي جرح جرحاً مميتاً في ٢٢ مايو عام ١٩١٣.. وكان أورنانو يكتب إليها وتبادله الرسائل..

* * *

وعاد نابليون آخر العام، واضطرت ماري أن تطلب مقابلته مرة أخرى، ودخلت في هذه المرة على الرجل المحطم الذي كان يعيش شهوره الأخيرة في الحكم. فقد انتزع منه الأعداء في معركة ليبزيج – التي استغرقت يومين – ما أخذه منهم في اثنتي عشرة سنة!.. وهم غدا سيقومون بغزو فرنسا نفسها!

ووجدت ماري أن وزنه قد زاد زيادة كبيرة، الأمر الذي أدهشها كثيراً حين وقع عليه بصرها لأول وهلة..

وقبلها نابليون ثم قال:

–كيف حال عزيزتي ماري؟.. وكيف حال صغيري ألكسندر؟..

ولم تصدر منه بعد ذلك أية حركة أو كلمة تنم عن حب أو غرام.. بل لقد أدخل إلى الغرفة ابنه الذي رزق به من زوجته النمساوية، وذلك كي يتحاشى البقاء معها على انفراد.. وطفرت الدموع من عيني العاشقة البولندية وكان لها العذر في ذلك..!

وبعد عدة أسابيع، غادر نابليون باريس ليبدأ حملة الدفاع عن أرض فرنسا.. وفي هذه المرة، رحل دون أن يودع أحدهما الآخر..

كان نابليون حينئذ يلعب بآخر ورقة في يده.. وكان يدرك أنه سوف يفقد عرشه إذا لم ينتصر، ولذا فقد أسرع بترتيب شئونه الخاصة

ليضمن مستقبل أبنائه، وأمر رئيس خزانته الخاصة بأن يمنح ابنه الصغير ألكسندر إيراداً سنوياً قدره خمسة عشر مليوناً من الفرنكات.

وهزم بونابرت في نهاية شهر مارس، وبذلك بدأ احتضار الإمبراطورية في قصر فونتنبلو. وقرر مجلس الشيوخ "إسقاط" نابليون عن العرش، ولكنه حاول أن يستبدل ذلك "بالتنازل" عن العرش.. وقبل الأعداء هذا الحل الأخير مراعاة لخاطر إمبراطور النمسا والد زوجة نابليون الثانية، التي كان من الواجب أن يؤمن مصيرها..

وأرادت ماري فاليفسكا أن تودع نابليون قبل رحيله إلى جريرة ألبا، ولما ذهبت إلى قصر فونتنبلو أخبروها بأن نابليون يطلب منها أن تنتظر.. ودام انتظارها ساعة، ثم ساعتين.. وأخيراً رحلت مع بزوغ الفجر.. ويبدو أن نابليون خشي أن يحدث بينهما وداع عاطفي، ففضل ألا يقابلها.. ولما أيقظوه بعد رحيلها بساعة واحدة، التفت لمن حوله وقال في أسف:

– يا للسيدة المسكينة!.. إنها لا شك ستظن أني قد نسيتها!

كان على نابليون أن يغادر قصر فونتنبلو في ٢٠ أبريل، فكتبت إليه ماري خطاباً في ١٥ أبريل، وقد أجابها في اليوم التالي يقول:

"إن مشاعرك تؤثر في نفسي تأثيراً عنيفاً، وهي مشاعر جديرة بروحك الجميلة وقلبك الطيب يا عزيزتي.. وإذا تصادف أن ذهبت إلى مدينة بيزا بعد أن تنتهي من ترتيب شئونك، فيسرني أن أراك هناك، وكذا ولدك الذي لن تتغير مشاعري نحوه أبداً..

"أرجو أن تكوني بصحة جيدة.. لا تحزني، أو تشكي في أبداً..

ن".

* * *

وعادت ماري إلى علاقتها مع أورنانو، ونسي هذا أنه ابن خالة نابليون، وصرح لحبيبته بأن الرجل العسكري يخدم بلاده ولا يخدم حكومة من الحكومات".

وتوفى الكونت فاليفسكي، ومع ذلك لم تتزوج ماري من أورنانو على الفور لأنها لم تكن قد فقدت بعد كل أمل في رؤية نابليون مرة ثانية. وذهبت لرؤيته بالفعل في جزيرة ألبا، وصحبت معها ابنها وواحدة من شقيقاتها..

كان ذلك في اليوم الأول من سبتمبر، ولما علم نابليون بحضورها انتقل من بورتوفيرايو إلى لامادون حيث نصب خيمته واستقبلها هناك. وفي موعد العشاء أمر بتقديم الطعام، وأخذ يقطع اللحم ويملأ الأطباق بنفسه وقد شاعت في وجهه أمارات البهجة والسعادة.. وكانت ماري حينذاك سيدة جميلة في الثلاثين، ممتلئة القوام بعض الشيء..

وبعد تناول العشاء اصطحبها نابليون هي وشقيقتها إلى المسكن الذي كان قد أعده لهما، ثم عاد إلى خيمته ليخلع ملابسه؛ فقد كان من عادته أن يثير الألغاز حول أشياء معروفة للجميع!.. وعلى الرغم من ذلك، كان من السذاجة بحيث كان جميع رفاقه يرونه وهو يخرج من خيمته كل ليلة مرتدياً "الروب دى شامبر" ليلحق بماري ولا يغادرها إلا قبيل الفجر، الأمر الذي دعا أحد الخدم إلى أن يقول عنه: "إن أبسط

الرجال وأشدهم سذاجة كانوا أكثر مهارة عن الإمبراطور في الشئون الغرامية!".

وغادرت ماري الجزيرة بعد عدة أيام وهي تحمل معها بعض الأموال، وعدة أوامر من نابليون موجهة إلى رجل من رجال البنوك في إيطاليا يدعى تورلونيا.. وكان نابليون قد اقترض كثيراً من المال من خادمه مارشان، وخادمه سان وينس. وقد أقرضه هذا الأخير – الذي كان يتمتع بمركز مالي متين – مليون فرنكا تقريباً.

وتوجهت ماري من جزيرة ألبا إلى إيطاليا مباشرة كي ترتب شئونها مع مورا وتورلونيا. وقد أكد نابليون فيما بعد أن مورا زوج شقيقته لم يبر بوعوده تجاه ماري حين تقدمت إليه لتحصل على منحتها المالية التي وهبها لها. ولكنه غير موقفه حينما علم بعودة نابليون إلى فرنسا من جزيرة ألبا؛ فقد ارتدى مورا حينئذ زي الماريشالية وذهب ليسلم ماري صك النقود، واعتذر لها بأن تأخير الصرف كان نتيجة إهمال بعض الوزراء. ويقال أن مورا حاول أن يغازل ماري حينئذ، كما فعل معها في بولندا من قبل.. وعقب نابليون على ذلك بقوله: "إن هذا العمل من جانب مورا يدل على الخسة والنذالة، ولذا لم أطلب منه أن يشترك معي في معركة واترلو".

وفي ١٥ سبتمبر صودرت جميع الهبات التي كان نابليون قد وهبها لماري في مملكة نابولي، والتي كانت تدر عليها ريعاً سنوياً يقدر بواحد وخمسين مليوناً من الفرنكات. ولكن مورا – وتعترف له ماري بالفضل في ذلك – قد أعاد بمرسوم صادر منه بتاريخ ٣٠ نوفمبر عام

١٨١٤ جميع الهبات التي منحها نابليون لماري وابنها في هذه المملكة. وبعد سقوط مورا عن عرش مملكة نابولي، امتنعت حكومة نابولي عن دفع هبات نابليون في هذه المملكة.

* * *

وفي فبراير عام ١٨١٥، طلب الجنرال أورنانو أن يصرح له بأجازة في باريس لأنه على وشك الزواج من ماري.. ولكن حدث أثناء ذلك أن غادر نابليون جزيرة ألبا ونزل في فرنسا، وبذلك بدأت حكومة المائة يوم.

وأجلت ماري الزواج مرة أخرى، وتوجهت إلى قصر الإليزية بناء على طلب نابليون الذي بعث إليها برسول ليسألها عن أخبارها ويطلب منها أن تذهب لمقابلته في القصر بعد قداس يوم الأحد.. وأحضرت معها ابنها ألكسندر كي يجنبها ذلك عبء تفسير سلوكها مع أورنانو..

لكن نابليون لم يعد شيئاً.. إنه كان في باريس كالمسافر التائه الذي يهيم على وجهه وهو لا يلوي على شيء.. لقد ولى سلطانه ونفوذه، وفقد الثقة بنفسه..

وصرعته معركة واترلو بصفة نهائية؛ فهرعت ماري إلى قصر مالميزون لتودعه الوداع الأخير، وحاولت أن توقظه من سباته بقولها: "فرنسا يا نابليون! وعرشك! وابنك!".. ولكن نابليون لم يعد يتأثر! كان ذلك في ٢٨ يونيو عام ١٨١٥. وفي اليوم التالي، غادر نابليون قصر مالميزون في طريقه إلى المنفى..

وهناك في سانت هيلانة، كانت اسم ماري فاليفسكا يتردد على شفتيه من حين لآخر. وذات يوم، أكد لمن حوله أن مدام فاليفسكا أجمل بكثير من بوتون دي روز ملكة جمال الجزيرة.

وفي ٧ سبتمبر عام ١٨١٦، وبعد عوائق كثيرة، تزوجت ماري من أورنانو. ولما وصل الخبر إلى نابليون في جزيرة سانت هيلانة في ١٨ يناير عام ١٨١٧، صرح بأنه يوافق على هذا الزواج. وكان تعليقه الوحيد: "إنها ثرية، إذ لا بد أنها قد اقتصدت بعض المال.. فضلاً عن أنني قد أعطيت الكثير لولديها". وقبيل وفاته بعدة أيام، خاطب برتران قائلاً: "يجب أن يكون الإيراد السنوي لابن مدام فاليفسكا مائتي ألف فرنك".

حقاً أن نابليون كان قد أعطى الكثير، ولذلك فقد اكتفى في وصيته بأن أبدى رغبته في أن يصبح ابنه من ماري، يوماً من الأيام، في خدمة فرنسا كواحد من رجال الجيش!

وتحطم زواج ماري فاليفسكا من الجنرال أورنانو بسرعة كبيرة، وقصة هذا الزواج تتلخص في التواريخ الثلاثة الآتية:

في ٧ سبتمبر عام ١٨١٦ تم عقد الزواج.. وفي ٩ يونيو عام ١٨١٧ وضعت ماري مولوداً ذكراً اسمه رودولف أوجست.. وفي ١١ ديسمبر عام ١٨١٧ توفيت ماري فاليفسكا.

ويقال أنها قد توفيت أثناء ولادة رودلف، ويقال أنها قضت نحبها نتيجة القلق والندم لسقطتها بين ذراعي بونابرت في عام ١٨٠٧

فقد ظلت صورته على الدوام ماثلة كالشبح بينها وبين زوجها أورنانو..
شبح الندم على ما لا يمكن إصلاحه!

مغامرات نابليون بعد معركة فريد لاند

بطولة فارس

كان نابليون قد عاد إلى باريس متوجاً بأكاليل الغار بعد انتصاره في معركة فريد لاند، وأقام في قصر فونتنبلو في المدة ما بين ٢١ سبتمبر و١٦ نوفمبر عام ١٨٠٧ وكانت شقيقته بولين تقيم معه هي وحاشيتها، ومن بين سيدات هذه الحاشية، كانت هناك واحدة تدعى مدام دي بارال، اشتهرت باسم زوويه. وكان من عادة شقيقات نابليون، وخاصة بولين، أن يدفعن بين ذراعيه بسيدات من حاشيتهن، أو ممن يعملن في خدمتهن!

ولدت بولين كونستانس زوويه في عام ١٧٨٠. وكانت في الثالثة والعشرين من عمرها حين تزوجت من الكونت دي بارال الذي كان في الستين. ولما كان هذا الكونت من أقرباء جوزيفين، فقد كان يتردد بالطبع على البلاط. وحينما تكونت حاشية بولين شقيقة نابليون، استطاع الكونت أن يحصل على موافقة بأن تكون زوجته وصيفة شرف في هذه الحاشية..

كان الجميع يعجبون بجمال زوويه الخلاب، فقد كانت فارغة القامة بديعة التكوين، ووصفت بأنها "أجمل نساء عصرها وأكثرهن سحراً". وكانت مشهورة بأنها خفيفة الظل، طيبة القلب، وعلى جانب كبير من الصفات الجميلة.. ومن أجل ذلك، كان الناس يرثون لحالها وينظرن إليها على أنها ضحية لزوج مقيت في مثل سن والدها.. وكان

جمالها هذا مثار إعجاب الفنانين، مما جعل الرسام روبير لوفيفر يرسم لها صورة رائعة تظهر فيها زوويه وهي متكئة على صخرة صغيرة وترتدي ثوباً من الحرير الأحمر الشفاف.. وكانت هذه اللوحة موضع إطراء الجميع.

كانت مدام دى بارال في السابعة والعشرين من عمرها حين أقام نابليون في قصر فونتنبلو في عام ١٨٠٧. ولما كانت – بحكم وظيفتها – تخرج مع الحاشية أثناء حفلات الصيد فقد لفت جمالها الباهر نظر نابليون، وتحدثت عنها بولين مع شقيقها، فكلفها بأن تنقل إليها بعض الكلمات من حين لآخر، وها هو ذي كونستان خادم نابليون الخاص، يقص قصة زوويه في مذكراته على النحو الآتي:

"كانت بداخل قصر فونتنبلو حديقة، لم يكن يدخلها سوى صاحب الجلالة وزوجته فحسب. وكانت هذه الحديثة محاطة بالمباني من كل ناحية؛ فإلى اليسار، كانت هناك الكنيسة الصغيرة بممراتها المظللة.. وإلى اليمين، كان يوجد البهو الكبير. أما المبنى الأوسط، فكان يحتوي على جناح صاحب الجلالة وزوجته. وأخيراً كانت هناك الواجهة، ذات الطراز القوطي، التي تقوم من خلفها عدة أبنية ضخمة يسكنها الأمراء والأميرات من أسرة الإمبراطور. وكانت مدام دي بارال تسكن في أحد هذه المباني في شقة الدور الأرضي.

"وذات مساء اضطرني جلالته بأن أتوجه خفية إلى شقة مدام دى بارال لأسلمها مكتوبة.. وأكد علي جلالته بأن أتسلل إلى مسكنها – في حذر – من خلال نافذة سأجدها مفتوحة. وكان الظلام ضرورياً لنجاح

مهمتي هذه، لأن أقل ضوء يمكن أن ينبعث من أي مبنى مجاور، سيكشف أمري لا محالة.. وتمكنت أخيراً من الدخول من النافذة، ولكن قدمي تعثرت بإحدى الدرجات العالية فوقعت على الأرض محدثاً ضجة كبيرة.. ولشد ما كانت دهشتي حين سمعت في هذه اللحظة صيحة عالية أعقبها صوت باب يغلق فجأة في عنف!

ونهضت في صعوبة كبيرة لشد ما كنت أشعر به من ألم في ركبتي وفي رأسي، ثم تحسست طريقي في بعض جوانب هذا المسكن المظلم، ولكنني لم أسمع شيئاً. ولما خشيت أن أحدث ضجة جديدة قد تتناهى إلى سمع أناس لا يحب الإمبراطور أن يعرفوا عن الموضوع شيئاً، فقد حزمت أمري وعدت أدراجي إليه وأخبرته بكل ما حدث.

"وتفحص جلالته جراحي، ولما رأى أن حالتي ليست خطرة، انفجر ضاحكاً وهو يقول: "آه!.. آه!.. إذن فلا بد أن يعمل المرء حساباً لهذه الدرجة اللعينة من السلم.. حسناً فلننتظر حتى تفيق مدام دي بارال من ذعرها، وستصحبني من جديد إلى هناك..!

"وبعد ساعة، خرجنا من باب غرفة مكتب الإمبراطور المطلقة على الحديقة، وسرت مع جلالته في سكون نحو النافذة التي كانت لا تزال مفتوحة. وساعدته في الدخول من النافذة كي أجنبه سقطتي.. ووصل صاحب الجلالة إلى باب "الغرفة".. ولما أمرني بالانصراف صارحته بقلقي، ولكنه طمأنني بأنه لا يمكن هناك أي خطر.. والواقع أنه كان أكثر نجاحاً مني، لأنه لم يعد إلا مع الفجر! وعند عودته، وجه إلي

بعض المزاح ولكنه ذكر أيضاً أنه كان من الممكن أن يتعثر في هذه الدرجة لو لم أخطره بذلك..

"وعلى الرغم من أن مدام دي بارال كانت سيدة جديرة بأن يتعلق بها جلالته تعلقاً شديداً، إلا أن علاقته بها لم تكن سوى نزوة لم تدم طويلاً. ويخيل إلي أن المشقة التي كان يصادفها الإمبراطور في هذه الزيارات الليلية، خففت كثيراً من حدة عواطفه الملتهبة نحوها.. ذلك أنه لم يكن مغرماً بها إلى الدرجة التي تجعله يتحدى كل شيء في سبيل عشيقته الحسناء..".

تلك رواية كونستان خادم نابليون الخاص.. وقد رأينا من قبل أن نابليون لم يكن في حاجة إلى القفز من النوافذ ليرى إحدى السيدات. فقد كان تحت تصرفه منزل شقيقته، وهو مأوى سري مضمون، وعدة منازل أخرى، فضلاً عن أنه كان في وسعه أن يحتجب كيفما يشاء في جناحه الخاص. ولذا نرجح القول بأن نابليون لم يحاول إعادة الكرة لأن مدام دي بارال قد رفضته، وليس لأنه لم يكن مغرماً بها على حد قول كونستان. ومن ناحية أخرى فليس هناك ما يؤيد هذه الرواية سوى مذكرات تافهة نشرها بعض الكوائين!.. ولو أن نابليون نجح في محاولته مع زوويه، لكان قد تشدق كعادته بهذا النجاح، وخاصة مع سيدة جميلة مثلها..!

* * *

ولا يسمع المرء إلا أن يشك في رواية كونستان إذا ما قارن بينها وبين كلام آخر نسب إلى زوج هذه السيدة؛ فقد قال الكونت دي بارال في إحدى المناسبات:

"إن زوجتي سيدة ماهرة حقاً، فعلى الرغم من أننا لسنا أثرياء، إلا أننا نبدو كذلك بفضل عبقريتها.. ويا لها من كنز ثمين هذه العبقرية؟".

وقد ادعى الكثيرون أن نابليون كان سخياً مع مدام دي بارال، وأن الكونت كان لا يستفسر عن مصدر المال الذي كانت تنفقه زوجته بغير حساب.. ولكن مثل هذه الإدعاءات لا تصمد أمام النظرة الفاحصة، فقد كان الكونت رجلاً غيوراً بطبعه، وكان كثيراً ما يسأل فجأة عن زوجته ليتأكد من وجودها في البيت!

والواقع أن مدام دي بارال لم تعرف طيلة حياتها سوى حبيب واحد تزوجت منه بعد أن أصبحت أرملة، وبعد أن عاشت سنين طويلة حافلة بألوان العذاب إلى جوار زوجها الشيخ العاجز.. ولسنا ننكر بالطبع أن نابليون قد حاول أن يوقع بزوويه بين براثنه، وتشهد على ذلك لور زوجة جونو، التي تقول:

"لقد كان بونابرت يشعر برغبة عنيفة نحو مدام دي بارال التي كانت تخرج في جميع حفلات الصيد بوصفها في حاشية بولين".. وكانت لور هذه سيدة سليطة اللسان تحاول تجريح سمعة كل إنسان، وهو أمر لا نملك معه إلا أن نصدقها حين تضيف قائلة:

"ولكن الإمبراطور لم يستطع أن يرغمها على الاستسلام له، رغم تعلقه الشديد بها!".

ولقد حاولت بولين بونابرت أن تقنع زوويه بالاستسلام لرغبة شقيقها الإمبراطور. وكانت تريد بذلك أن تضرب عصفورين بحجر واحد، ولكن الأمر كان يتطلب جرأة كبيرة، فقد كانت زوويه سيدة فاضلة، لا تتردد في أن تضحي بعملها في البلاط لو أصرت بولين على تنفيذ خطتها. ولدينا في هذا الصدد تصريح كتبته بولين في خطاب لها بعثت به إلى واحد من عشاقها العديدين، ويدعى فوربان. تقول بولين:

"ليست مدام دي بارال بالصديقة الحميمة ولا بالعدوة اللدود.. وكل ما في الأمر أنها لا تريد قط أن تخدمنا..".

* * *

كان حبيب زوويه هذا ضابطاً شاباً في فرقة الفرسان يدعى جان لويس دي لاروش، واشتهر بأنه أجمل فرسان عصره وأكثرهم أناقة. وقد وصفه أحد معاصريه فقال: "لقد كان فضلاً عن شبابه الغض ووسامته الفائقة شاباً رائع الجسم ذا شجاعة لا مثيل لها!".

وكان أن وقعت الأميرة بولين بونابرت في حب جان دي لاروش بمجرد أن وقع بصرها عليه. ومنذ تلك اللحظة، صممت بولين على أن تفوز به مهما كلفها ذلك من ثمن، فعقدت مع شقيقها اتفاقاً على اقتسام الحبيبين؛ أي أن تسهل للإمبراطور أمر الحصول على زوويه، في مقابل أن يدعها وشأنها مع الفارس الشاب..!

وذات صباح، كانت زوويه في غرفة الأميرة ساعة استيقاظها، فأطرت بولين على جمال وصيفتها إطراء بالغاً، ثم أنهت كلامها بعد أن تبادلت معها عدة عبارات بغية كسب ألفتها:

- هل تعرفين يا عزيزتي أن جلالة الإمبراطور معجب بك ويراك ساحرة للغاية؟.

فأجابتها زوويه قائلة:

- يبدو أن سيدتي تشعر اليوم بمرح كبير، ولذلك فإنني أقبل مزاحها بكل سرور..

فقالت الأمير في رقة:

- ولكنني لا أمزح يا عزيزتي.. إنه معجب بك حقاً.. والمرء لا يرفض بالطبع أية رغبة للإمبراطور!

فقالت زوويه بكبرياء:

- لقد أخذت قول سمو الأميرة على محمل المزاح البسيط، ولكن يبدو أن سموها تهدف إلى شيء آخر. أما والأمر كذلك، فليس لدي غير إجابة واحدة: إنني لست عظيمة الشأن كي أصبح إمبراطورة، ولكنني أحترم نفسي لدرجة أرفض معها أن أكون عشيقة لأي إمبراطور!

وغضب نابليون بالطبع حتى علم بالأمر.. أما بولين، فقد نجحت أخيراً في الحصول على موعد من الضابط الشاب. ولكن هذا لم يتردد في مصارحة حبيبته بالأمر، فوافقت على ذهابه بعد أن جعلته يقسم على أنه لن يمكث عند الأميرة سوى فترة وجيزة.

وقد روى جان أن الأميرة كانت قد تركت باب حديقة قصرها مفتوحاً، فلما ذهب إلى هناك، وجدها تنتظر في الحديقة. وما أن وقع عليها بصرها حتى أسرعت نحوه وقادته من يده في الظلام حتى وصلا أخيراً إلى مخدعها بعد أن عبرا عدة صالونات فاخرة الرياش..

وعاد الضابط إلى مسكنه بعد أن انتهى من زيارته.

* * *

ولم تكد تمضي على هذه الزيارة عدة أيام، حتى ثار الإمبراطور ثورة عارمة، وأمر بأن تنفى مدام دي بارال إلى إقليم دوفينيه حيث توجد أرضها، وأن يرسل الضابط الشاب إلى البرتغال ليقاتل تحت أمرة الجنرال بسيير..

وهناك، أبلى الفارس بلاءً حسناً في الحرب، وأبدى بسالة نادرة في المعارك الطاحنة التي كانت دائرة مع الإنجليز. ولما رأى الجنرال بسيير مقدار حماس الضابط الشجاع، أوصاه بأن يخفف من هذا الحماس، ولكنه لم يستجب للنصح.. وذات يوم، استدعاه الجنرال إلى مكتبه وخاطبه قائلاً:

– يا بني.. استمع إلي فإن ما سأبوح لك به الآن سر يهمك أن تعرفه: إن لدي أمراً بأن أجعلك عرضة للموت في الميدان..

وعلى الرغم من ذلك، لم يكف الفارس عن حماسة الدافق. وبلغت قمة هذا الحماس في إحدى المواقع، حيث كان هناك مدفعان يسببان خسائر فادحة للجيش الفرنسي؛ فما كان من الضابط إلا أن خرج على رأس فصيلة من الفرسان وقام بهجوم دمر فيه هذين المدفعين..

وخرج الفارس من المعركة يجر ساقه من خلفه..

وكاد الفارس أن يضيع تماماً هذه المرة، لولا أن حمله شقيقه على ظهره حتى مركز الإسعاف، وهناك أجريت له عملية كبيرة، وكان جان يمسك بصورة حبيبته أثناء إجراء العملية ويهذى باسمها.

ولم تكف بولين عن محاولة استمالة الضابط إليها عن طريق شقيقه، ولكنه ظل وفياً لحبيبته حتى تزوج منها بعد ذلك بسنوات حين توفى الكونت دي بارال في عام ١٨٢٢.

تلك هي القصة، ويمكننا أن نستنتج منها أن نابليون لو كان قد ظفر بزوويه – ولو مرة واحدة – لأغرقها كعادته في سيل من المنح والعطايا. أما لقب "بارون" الذي منحه لزوجها الكونت دي بارال في عام ١٨٠٧، فالفضل في ذلك يعود لصلة القربى التي تربط بين الكونت وبين جوزيفين، وليس لسبب آخر..

أما جان دي لاروش، ذلك الضابط الشجاع، فلم يحصل إلا على لقب "فارس"، وقد منح هذا اللقب في عام ١٨٠٩، ومع ذلك لم يتسلم براءته إلا في عام ١٨١١.

وقد ظل الضابط وزوجته يحملان طيلة حياتهما كراهية شديدة لنابليون، وكذا شقيقته بولين التي شتت شملهما في غير رحمة!

عذراء مدريد

بعد عودة نابليون من رحلته الشهيرة إلى مدينة أرفورت بألمانيا، أخذت الحوادث في إسبانيا تتطور تطوراً خطيراً، مما اضطره إلى السفر إلى هناك ولم تكد تمضي على عودته إلى باريس عشرة أيام.

وفي ١١ نوفمبر عام ١٨٠٨، زحف نابليون من بورجوس إلى مدريد، فاستسلمت في ٤ ديسمبر عام ١٨٠٨، ثم أخذ يتوغل داخل البلاد بحذر شديد نظراً للمقاومة العنيفة التي أبداها الوطنيون في وجه هذا المحتل. وكانت معركة مروعة تلك التي رأى فيها نابليون خيرة رجاله وأحسن أصدقائه يهلكون أمام عينيه، حتى دب اليأس في نفوس الجنود وسرى التذمر بينهم، إلى درجة أنهم كانوا يحرضون بعضهم بعضاً على قتله. وكان يسمع بأذنيه عبارات كهذه صادرة من بعض الجنود: "أطلقوا عليه النار فتستريح منه!" ولكنه كان يلزم الصمت من فرط الغم والإرهاق.

واستمرت الحرب في أعنف صورة عرفها نابليون لمدة ست سنوات أو سبع، خسرت فرنسا خلالها أكثر من مليون ومائتي ألف جنديا، فضلاً عن ملايين عديدة من الفرنكات الذهبية.

ولما عجز بونابرت عن إلحاق الهزيمة بالإسبان بصورة تضع نهاية حاسمة للحرب، عاد إلى فرنسا بدعوى أن تاليران يدبر مؤامرة ضده!

في تلك الفترة التي قضاها نابليون في إسبانيا – بين يوم استسلام مدريد ويوم توغله المنكوب إلى بنافنتي –كانت الفرصة سانحة أمامه كي يستمتع ببعض المسرات في مدينة شامارتان. وكان ينفق المال كعادته على الفتيات دون حساب، وظهرت في حياته الغرامية حينذاك فتاة التقطها له من أحد المسارِح محافظ قصره وأكثر قواديه إخلاصاً "دي بوسيه" البدين..

يحكى دي بوسيه القصة فيقول:

"كانت الفتاة ممثلة تعمل على مسرح مدريد الكبير، صغيرة لا تزيد سنها على ستة عشر ربيعاً.. جميلة كأنها السحر بعينه. وكانت ذات شعر أسود فاحم، وعينين تفيضان جاذبية وعذوبة. وقد عرف عنها أنها استطاعت – برغم ما كانت تتعرض له بحكم مهنتها – أن تحتفظ بعفافها وسط هذا الجو المشحون بالخطر والإغراء. ولما شاهدها جلالة الإمبراطور تمثل على المسرح ذات مساء، أخذته الدهشة لفرط جمالها وحيويتها".

ويمضي دى بوسيه في قصته قائلاً:

"وكانت هذه الفتاة يتيمة الأبوين تعيش مع عمتها العجوز، وهي امرأة نحيلة سيئة الطبع.. وكانت العجوز لا تمل من الإطراء على جمال الفتاة ومحاسنها في كل مكان، ذلك لأنها كانت تحلم بثورة تهبط عليها من رجل ثري ذي نفوذ يضع ابنة أخيها في رعايته!

"ولما علم صاحب الجلالة بهذه الصورة المثيرة عن الفتاة، أبدى رغبته في رؤيتها فهرع دي بوسيه على الفور إلى عمتها.. وما كادت العجوز تعلم برغبة نابليون حتى رقص قلبها طرباً للفرصة السعيدة!!

"وفي مساء نفس اليوم، ذهبت الفتاة إلى قصر شامارتان وقد تزينت بطريقة ساحرة، وكانت قد استعملت عدة أنواع من عطور قوية، اعتقاداً منها أن ذلك يدخل السرور على قلب الإمبراطور. ولم تكن تعلم أنه ينفر من رائحة العطر – بكل أنواعه – نفوراً شديداً!

"وأدخلت الفتاة على نابليون في غرفته، وما أن رآها حتى تلاشى نفوره من رائحة العطر التي تفوح منها، نظراً لسحرها وفتنتها..

"وجلسا يتناولان طعام العشاء، وكانت الممثلة الصغيرة فخورةً وسعيدةً لأنها ستكون محظية لجلالة الإمبراطور ويا للأسف فإن حماقتها التي قادتها في طريق الخطيئة، جعلتها تفقد أحلامها وأعز أمنياتها!".

يقول كونستان خادم الإمبراطور الخاص الذي شاهد بقية القصة:

"دق الجرس في حجرة الإمبراطور بعنف، فهرولت مشرعاً إلى الغرفة، وحينئذ لم أجد غير الفتاة الشابة. أما جلالته فكان واقفاً في غرفة صغيرة أخرى ملحقة بغرفة نومه، وكان يمسك برأسه بين يديه من فرط الإعياء. وصاح يقول بمجرد أن رآني:

– كونستان!.. خذ هذه الصغيرة بعيداً.. إنني على وشك أن أختنق بسبب عطورها!.. هيا افتح جميع النوافذ والأبواب.. ولكن خذها بعيداً قبل كل شيء..

وكان الوقت متأخراً لطرد فتاة صغيرة مثلها دون تدبير سابق، فضلاً عما كان في ذلك من إذلال لكرامتها.. ولكن الأمر كان قاطعاً لا يقبل الجدل..

وذهبت لأخبر الصغيرة المسكينة بأمر صاحب الجلالة، ولم تفهم في بادئ الأمر، مما اضطرني لأن أكرر لها القول عدة مرات:

"يا آنسة.. إن صاحب الجلالة يرغب في أن ترحلي على الفور"

وأخذت الفتاة تبكي وتتوسل إلي كي لا أطردها في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. وعلى الرغم من أنني أخبرتها بأنني سأتخذ جميع الاحتياطات اللازمة، وأن هناك عربة أنيقة محكمة تنتظر في الخارج لتوصلها إلى البيت، فإنها لم تكف عن بكائها وتوسلاتها إلا حين أطلعتها على الهدية التي كلفني الإمبراطور بتقديمها إليها، وكانت مبلغاً كبيراً من المال قدره عشرة آلاف فرنك!".

وذهب الخادم لمصاحبة عذراء مدريد المعطرة إلى بيتها، وعند عودته إلى القصر، رأى سيده لا يزال جالساً في غرفته الخاصة وهو يدعك صدغيه بماء الكولونيا..

ومن الغريب أن نابليون الذي جاب العالم محرزاً النصر في مئات المعارك، لم يستطع في هذه الليلة أن يصل إلى سريره إلا متكئاً على ذراع خادمه كونستان!

الشقراء الحسناء

بعد عودة نابليون إلى باريس من إسبانيا، بدأ على الفور في إعداد حملة لهزيمة النمسا هزيمة ساحقة، وكانت حملة عنيفة بعكس ما كان يتوقع، ولكنها توجت بالنصر آخر الأمر.

وفي الفترة التي أقامها نابليون في فيينا عام ١٨٠٩، وعلى الرغم من وجود ماري فاليفسكا هناك، ظهرت في قائمة نابليون الغرامية عدة نساء، من بينهن فتاة شابة في التاسعة عشرة من عمرها تدعى إيفاكراوس..

ففي ذات يوم – أثناء استعراض كبير بميدان شوبنرون – لاحظ نابليون من بين جمهور النظارة الكبير فتاة حديثة السن، طويلة القامة بديعة التكوين، تتميز عن سائر السيدات بملابسها السوداء التي ظهر بشرتها الناصعة البياض، وخصلات شعرها الشقراء التي كانت تتطاير في الهواء فتداعب وجنتيها وتزيدها جمالاً وسحراً.

وسرعان ما عرف نابليون أن الفتاة الجميلة قد جاءت إلى المدينة في صحبة والدها بالتبني كي ترى نابليون، وكان والدها يدعى فيليب مينوتي ويعمل قوميسيرا في الحرب.

* * *

وأمر نابليون بإرسال دعوة إلى الفتاة لتناول العشاء على مائدة القصر، وهذا معناه أنه سوف يستقبلها في غرفة نومه مساء اليوم التالي!

وسارت المسألة سيراً حسناً لما كانت تتمتع به من سحر وجاذبية، فضلاً عن رقتها وسذاجتها، وبلغ من تأثير الفتاة عليه أنه احتفظ بها قريبة منه طيلة مدة إقامته في فيينا..

وكانت إيفا كراوس تعرف اللغتين الفرنسية والإيطالية معرفتها للغة بلادها الأصلية، وكان الإمبراطور يجد تسلية كبيرة في الإنصات إليها، وقصت عليه أنها كانت ابنة لموظف صغير من مناجم أوربا.. وكانت أسرتها كبيرة العدد، فتبناها مينوفي قوميسير الحرب هذا، الذي أنعم عليه نابليون بوسام اللجيون دونير في مقابل رضاه عن هذه المغامرة.

وقبل أن يغادر نابليون مدينة فيينا، منح إيفا رأسمالاً هائلاً، ويدعي الرواة أن السبب في ذلك هو الجنين الذي كانت تحمله منه بين أحشائها. وفيما بعد لحقت به إيفا في باريس، حيث وضعت مولوداً ذكراً..

* * *

وفي منتصف القرن التاسع عشر تقريباً، كان الناس في فيينا يشيرون إلى عضو بالبرلمان اشتهر في ميدان العلم والقانون، يدعى أوجين ميجري.. يكاد يكون نسخة أخرى من نابليون في ملامحه. وكان من يخالطونه يؤكدون أنه ثمرة غراميات بونابرت مع إيفا، الشقراء الحسناء.

طلاق جوزيفين

طلاق جوزيفين

بعد أن انتهى نابليون مؤقتاً من حربه مع النمساويين، عاد إلى فرنسا حيث أقام في قصر فونتنبلو، وكان مضطرب المزاج سيئ الطبع، فقد كان في حاجة لتركيز كل قواه لينتصر في معركة صعبة من نوع آخر، ألا وهي معركة طلاقه من جوزيفين!

فمنذ أن انتهت حرب النمسا بالنصر لصالح نابليون، أصبح زواج نابليون من جوزيفين في حكم المقضي عليه.. ولم يتوان أعضاء أسرة بونابرت عن استغلال أية فرصة لإذكاء نار الخلاف بين الزوجين. ولجأت بولين بونابرت في ذلك إلى حيلتها التقليدية، فدفعت بين ذراعي شقيقها بعشيقة جديدة يغرم بها فترة من الوقت، فتزداد قسوته على جوزيفين. وكانت هذه العشيقة تدعى كريستين ماتيس..

وفي يوم الخميس الموافق ٣٠ نوفمبر عام ١٨٠٩ قرر نابليون أن ينفصل بالطلاق عن زوجته التي كانت أول عشيقة دربته على فنون الحب.. في ذلك اليوم، جاء نابليون ليتناول طعام العشاء مع جوزيفين، وكانت تخفي عينيها المحمرتين من البكاء تحت قبعة كبيرة من الجلد الأبيض تحجب جزءاً كبيراً من وجهها..

ومضت عشرة دقائق وهما لا ينبسان ببنت شفة، وفجأة، نهض نابليون من مقعده وخاطبها قائلاً:

– كيف حال الطقس اليوم؟

ولم تجب جوزيفين، فتناول فنجان القهوة قبل أن تقدمه إليه زوجته، ثم أشاح بيده آمراً للخدم بالانصراف.. وبعد ذلك بلحظات، دوت صيحات عنيفة، وشوهد نابليون يفتح باب الغرفة وقد بدا كالتائه، وقال يخاطب منفذ رغباته دي بوسيه البدين:

– ادخل يا دي بوسيه واغلق الباب..

كانت جوزيفين ملقاة على الأرض تصيح وتشكو وتقول في صوت يمزق نياط القلب:

– كلا! إنني لن أعيش بعد ذلك..

لقد انتهى كل شيء وأصبحت جوزيفين طالقاً.. وكان لا بد من كتمان الفضيحة ومنعها من الشجار والصياح.

قال نابليون مخاطباً دي بوسيه:

– هل تستطيع أن تحمل جوزيفين إلى جناحها عن طريق السلم الداخلي المؤدي إلى هناك؟.. ولا تنس أن تضعها تحت حراسة سيدات الحاشية.

ووضع دي بوسيه جوزيفين على أريكة، ودق نابليون الجرس ليستدعي سيدات حاشيتها، ثم أسرع بالانصراف وهم يغمغم قائلاً: "إنني أنا الذي أستحق الرثاء!. إن مصلحة فرنسا هي التي دفعتني إلى أن أكون عنيفاً مع قلبي، فأصبح الطلاق واجباً ثقيلاً لا مفر منه!".

ولم يلبث نابليون أن عاد إلى غرفتها بعد قليل، وبدأ في مساومتها من جديد. وعرض عليها أن يمنحها قصراً ومليوناً من الفرنكات في العام، ولكن جوزيفين لم ترض بذلك. وأضاف نابليون قصراً ثانياً إلى

العرض السابق، ولكنها لم تتزحزح عن موقفها. وضاعف عرضه حتى وصل إلى مليار فرنك في العام[٨]، وثلاثة قصور هي قصر لامالميزون والإليزية ونافار، فضلاً عن تسديد جميع ديونها، وحينئذ وافقت على الطلاق.

وبعد قليل، خرج تاليران – الذي كان حاضراً – عن صمته وبروده، وصاح قائلاً:

– يا له من شيء مربع حقاً! – أيطرد الرجل زوجته هكذا؟! إنه عمل يتطلب الانتقام، وسأنتقم لها!

ولكن تاليران كان يبغي الانتقام من أجل نفسه لا من أجلها.. أما نابليون، فقد سخر من تاليران، وأسرع إلى عشيقته كريستين التي سبق أن ذكرنا أن شقيقته بولين قد دفعت بها بين ذراعيه لتزيد من قسوته على جوزيفين!

* * *

والمعروف أن نابليون قد احتجب في قصر تريانون وقلبه مفعم بالحزن حينما غادرت جوزيفين قصر التويللوري ومعها ببغاؤها المفضل وعدد هائل من الفساتين. وقد تحدث الكثيرون عن "عظيم تضحية" نابليون وحزنه العميق الذي كان يريد إخفاءه عن الجميع باحتجاجه في قصر تريانون. ولكن هذا الكلام فيه كثير من المبالغة.. إذ الواقع أن نابليون كان يخفي عشيقته كريستين في هذا القصر، وكان يريد أن يكون

---

(٨) أي ما يساوي الآن مليون جنيها تقريباً.

معها على انفراد دون أن تزعجه تقاليد البروتوكول! ولم تخرج من عنده إلا قبل زواجه بـ "ماري لويز" بيوم واحد.

أيهن أحبها نابليون؟

لقد اتصل نابليون – في حياته – بنحو مائة امرأة وفتاة، ولم تستغرق هذه الصلة – في بعض الأحيان – أكثر من بضع دقائق. وقد أهملنا ذكر النسوة اللاتي لم نعرف أسماءهن لأنهن مازلن مجهولات لنا..

والآن نحب أن نتساءل: أي النساء كن أكثر وضوحاً وظهوراً في حياته؟.. إنهن بالتأكيد: خطيبته الصغيرة أوجيني ديزيريه، وجوزيفين، والممثلة جورج، وماري فاليفسكا، ومغنية الأوبرا جوزبينا جراسيني، وماري لويز زوجته الشرعية الثانية.

وعلى الرغم من أولئك النسوة قد ارتبطت أسماؤهن بحياته، لفترة من الزمن طويلة كانت أم قصيرة، إلا أنهن لم يكن يشعرن نحوه بعاطفة صادقة عميقة، اللهم إلا ذلك الاندفاع العاطفي الذي أبدته نحوه خطيبته الصغيرة ديزيريه، ولكنه كان اندفاعاً ساذجاً مؤقتاً، فضلاً عن أنهن يبدو عليهن الحزن العميق ساعة نهايته.

ولقد كان نابليون يطارحهن الغرام.. فهل كان يحبهن حباً حقيقياً؟

من المؤكد أنه قد رغب في تملكهن، وأنه ملَّهن بعد فترة من الوقت طالت أم قصرت.. بل أن ماري فاليفسكا نفسها التي أولع بها ولعاً عنيفاً حتى أنه كان يؤكد أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها ساعة واحدة، فقدت مكانتها بعد أن استسلمت له بعدة أسابيع!

والواقع أن قلب نابليون تعلق بامرأتين فقط، وكان تعلقه بإحداهما أكثر بكثير من تعلقه بالأخرى. هاتان المرأتان هما: جوزيفين دي بوهارنيه، وماري لويز..

وقد عاشر نابليون زوجته الثانية ماري لويز وقتاً أطول بكثير من أي فترة قضاها من أي من عشيقاته. ولكن ماري لويز كانت لا تفرض شخصيتها عليه، ومن ثم بدت في عينيه طفلة صغيرة. والواقع أنها كانت طفلة ساذجة مراهقة حين تزوجته، وكان من ناحيته لا يستطيع أن ينظر إليها كامرأة عشيقة. وكانت بدورها تشعر بالحرج في وجوده، وتبعث في البلاط وفي الشعب شعوراً بالكآبة.. إنها لم تستطع أن تثيره وتبهره مثلما فعلت عمتها ماري أنطوانيت مع الملك لويس السادس عشر.. ذلك أن ماري أنطوانيت كانت سيدة من نوعٍ آخر، ولكن نابليون ابتلع صدمته، واخترع لمن يحيطون به وللأجيال التالية شخصية أضفاها على زوجته الثانية.. فهل اعتقد بدوره فيما اخترعه بنفسه؟ إن الإجابة عن سؤال كهذا صعبة للغاية، ولكن الشيء المؤكد، أنه كان يعاملها كطفلة، وزوجة صغيرة، وفتاة تحت الوصاية!

ويبقى اسم جوزيفين بعد ذلك بارزاً.. وكانت أكاليل الغار تعود إليها على الدوام؛ إذ لا جدال في أن أية امرأة أخرى لم تشغل في حياة نابليون – وتحديد مصيره – مكاناً كبيراً مهماً مثل الذي شغلته جوزيفين.

لقد تقابلا في عام ١٧٩٥، ودام زواجهما نحو خمسة عشر عاماً، وأسهمت في صعود نجمه وارتقائه لسلم المجد. إنها منحته الحماية، وأعطته حاشية، وكانت سيدة بلاطه، وفوق كل ذلك علمته

الحب وعودته على مواهبها في شئون الغرام، حتى أنه كان لا يملك ألا أن يعود إليها خاضعاً من حين إلى آخر..

إن جوزيفين هي التي سحرت روح فتى كورسيكا حين كان شاباً صغيراً يجهل العالم، واستمر تأثيرها الحسي عليه مدة طويلة، حتى أنه كان يتحدث عن جسمها بألفاظ صريحة بعد انفصالهما بعشر سنوات. وقبل احتضاره بعدة أيام، علق طويلاً على ماضيه مع هذه المرأة، وعلى قصة علاقتهما وزواجهما، وهذا آخر ما قاله في هذا الموضوع:

"هل كانت جوزيفين تعطي؟! نعم.. ولكنها لم تكن تحرم نفسها من شيء لكي تعطي.. إنها كانت تمد إحدى يديها لمساعدة أحد الناس، وتمد إليه اليد الأخرى لتأخذ منه.. وكانت كاذبة ومسرفة إلى أقصى حدود الكذب والإسراف. ومع ذلك، فقد أحببتها حباً حقيقياً وأعجبت بها أيما أعجاب على الرغم من أنني لم أكن أحترمها.. لقد كانت امرأة حقيقية بمعنى الكلمة".

لقد احتفظت جوزيفين بسلطانها على نابليون لأنها هي التي علمته ملذات الحب، ولكنه كان يحتقرها من الناحية الأخلاقية احتقاراً يكاد يكون تاماً. ولم تكن جوزيفين على قدر يذكر من الثقافة أو القوة العقلية، فقد كانت لا تحب الكتب أو الموسيقى. والمرء لا يستطيع أن يعثر على كلمة واحدة خرجت من فمها إعجاباً بتحفة فنية أو تعقيباً على حدث جليل!

ولم يكن نابليون يغفر لها ضعف أخلاقها ويتساهل معها في كل شيء إلا أنها كانت تتحول في خلوته معها إلى أنثى تتجسم فيها جميع عوامل الإغراء..

الفهرس